قصص من ألف ليلة

كامل كيلانى

السندباد البحرى



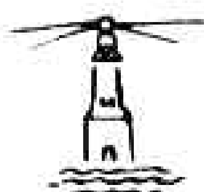
دار المعارف

كامل كيلانى

قصص من ألف ليلة

السندباد البحرى

الطبعة السادسة والعشرون



دار المعارف

الإهــداء(١)

وَلَدِى مُصْطَفَى :

قَرَأْتُ عَلَيْكَ هَـذِهِ الْقِصَّةَ وَأَنْتَ تَسْتَقْبِلُ الْعَامَ السَّابِعَ مِنْ عُمْرِكَ فَأَعْجَبَتْكَ ، وَرُحْتَ تَقُصُّهَا عَلَى أَقْرَانِكَ الصِّغَارِ لِيُشَارِكُوكَ فِى الْإِعْجَابِ بِهَا . فَأَعَدْتَ إِلَى ذَاكِرَتِى عَهْدَ طُفُولَتِى الْمَحْبُوبَ ، أَيَّامَ كُنْتُ أُصْغِى إِلَى أَمْثَالِ هَـذِهِ الْقِصَّةِ بِشَوْقٍ وَشَغَفٍ شَدِيدَيْنِ .

وَذَكَرْتُ — إِلَى هذَا — حَاجَةَ الْأَطْفَالِ إِلَى كُتُبٍ سَهْلَةٍ تُحَبِّبُ إِلَيْهِمُ الْقِرَاءَةَ وَتَدْفَعُهُمْ إِلَى الِاسْتِزَادَةِ مِنْهَا ، فَنَشَرْتُ لَهُمْ هَذِهِ الْقِصَّةَ الْمُمْتِعَةَ ، لِيَقْرَأَهَا كِبَارُهُمْ وَيَقُصَّهَا الْآبَاءُ عَلَى صِغَارِهِمْ .

☆
☆ ☆

إِلَيْكَ إِذَنْ وَإِلَى أَتْرَابِكَ أُهْدِى هَذِهِ الْقِصَّةَ وَمَا يَتْلُوهَا مِنْ قِصَصٍ . !

ديسمبر سنة ١٩٢٨

كامل كيلانى

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

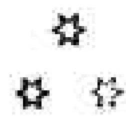
مقدمة

كِتَابُ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » مِنْ أَنْفَسِ ٱلذَّخَائِرِ ٱلْأَدَبِيَّةِ، وَلَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَنْمِيَةِ خَيَالِ ٱلْكَثِيرِينَ مِنْ مُفَكِّرِي ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ ، وَلَكِنَّهُ — عَلَى نَفَاسَتِهِ — لَمْ يَلْقَ شَيْئًا مِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِهِ مِنَ ٱلْعِنَايَةِ فِي الشَّرْقِ ، وَلَعَلَّ إِهْمَالَهُ عِنْدَنَا رَاجِعٌ إِلَى أَسْبَابٍ ثَلَاثَةٍ وَهِيَ :

(١) رَكَاكَةُ ٱلْأُسْلُوبِ فِي أَكْثَرِ قِصَصِهِ .

(٢) ضَعْفُ ٱلْخَيَالِ وَسُخْفُهُ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنْهَا .

(٣) عَدَمُ تَحْلِيَتِهِ بِالصُّوَرِ ٱلَّتِي تُجَلِّي أَغْرَاضَهُ وَمَعَانِيَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلْفِرِنْجَةُ .



وَلَمَّا كَانَ أَطْفَالُنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى كُتُبٍ عَرَبِيَّةٍ تُحَبِّبُ إِلَيْهِمِ ٱلْمُطَالَعَةَ وَتَجْعَلُهُمْ يُقْبِلُونَ عَلَيْهَا بِشَغَفٍ ، ٱنْتَهَزْتُ فُرْصَةَ مَيْلِهِمِ ٱلْغَرِيزِيِّ هٰذَا إِلَى سَمَاعِ ٱلْأَقَاصِيصِ ، فَشَرَعْتُ فِي نَشْرِ طَائِفَةٍ صَالِحَةٍ مِنَ ٱلْقِصَصِ ٱلْمُخْتَارِ مِنْ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ » وَغَيْرِهَا ، وَقَدْ عُنِيتُ بِٱخْتِيَارِ الصُّوَرِ عِنَايَتِي بِٱخْتِيَارِ ٱلْقِصَصِ ، بَاذِلًا كُلَّ

مَا فِى وُسْعِى فِى انْتِقَاءِ أَسْهَلِ الْأَسَالِيبِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِى يَفْهَمُهَا الْمُبْتَدِئُ بِنَفْسِهِ ، أَوْ مَعَ قَلِيلٍ مِنَ الشَّرْحِ الَّذِى نَكِلُهُ إِلَى حَضَرَاتِ الْمُعَلِّمِينَ أَوِ الْآبَاءِ .

٭

٭ ٭

وَلَعَلَّ خَيْرَ مَا يَقُومُ بِهِ الْمُدَرِّسُ لِلطَّالِبِ الْمُبْتَدِىءِ — لِتَقْوِيَتِهِ فِى الْإِنْشَاءِ — أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ أَمْثَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الْمُشَوِّقَةِ ، وَسِيلَةً إِلَى الْمُحَادَثَاتِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، ثُمَّ يَخْتِمَهَا بِتَكْلِيفِ الطَّالِبِ صَوْغَ مَا فَهِمَهُ فِى عِبَارَةٍ عَرَبِيَّةٍ وَاضِحَةٍ .

٭

٭ ٭

هَذِهِ الطَّرِيقَةُ هِىَ أَوَّلُ مَرَاتِبِ الْإِنْشَاءِ ، وَفِى هَذِهِ الْقِصَصِ عِبَرٌ يُمْكِنُ الْمُعَلِّمَ أَنْ يَسْتَخْلِصَهَا بِسُهُولَةٍ لِتَلَامِيذِهِ ، وَلَيْسَتْ حَاجَةُ الْبَنَاتِ إِلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ الْقِصَصِ بِأَقَلَّ مِنْ حَاجَةِ الْبَنِينَ ، وَفَّقَنَا اللهُ إِلَى الْخَيْرِ وَأَلْهَمَنَا الرُّشْدَ وَالسَّدَادَ .

ديسمبر سنة ١٩٢٨

كامل كيلانى

تمهيد

الهندباد الحمال

كَانَ بِمَدِينَةِ « بَغْدَادَ » — فِي زَمَنِ الْخَلِيفَةِ « هَارُونَ الرَّشِيدِ » — حَمَّالٌ فَقِيرٌ ، اسْمُهُ « الْهِنْدِبَادُ » .

فَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الصَّيْفِ ، جَلَسَ « الْهِنْدِبَادُ » تَحْتَ قَصْرٍ عَالٍ تُحِيطُ بِهِ حَدِيقَةٌ جَمِيلَةٌ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ السَّيْرِ ، بَعْدَ أَنْ أَنْهَكَهُ التَّعَبُ وَالْحَرُّ الشَّدِيدُ ، وَوَضَعَ — إِلَى جَانِبِهِ — حِمْلَهُ الثَّقِيلَ .

فَسَرَى إِلَيْهِ مِنَ الْحَدِيقَةِ نَسِيمٌ لَطِيفٌ حَمَلَ إِلَيْهِ رَائِحَةَ الْأَزْهَارِ الْعَطِرَةِ ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ — مِنْ نَاحِيَةِ الْقَصْرِ — رَائِحَةُ الشِّوَاءِ اللَّذِيذِ ، وَالْأَطْعِمَةِ الشَّهِيَّةِ .

وَسَمِعَ « الْهِنْدِبَادُ » الطُّيُورَ تُغَرِّدُ — عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا — فَوْقَ الْأَشْجَارِ ، كَمَا سَمِعَ أَصْوَاتَ الْغِنَاءِ وَأَنْغَامَ الْمُوسِيقَى الْمُطْرِبَةِ فِي ذَلِكَ الْقَصْرِ ، فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّ أَصْحَابَهُ فِي عُرْسٍ .

صَاحِبُ الْقَصْرِ

وَذَهَبَ « الْهِنْدِبَادُ » إِلَى أَحَدِ الْخَدَمِ فَرَآهُ لَابِسًا أَبْهَى

اُلْمَلَابِسِ وَأَحْسَنِهَا ، وَلَمَّا سَأَلَهُ عَنِ اسْمِ صَاحِبِ هَذَا الْقَصْرِ الْبَدِيعِ قَالَ لَهُ الْخَادِمُ مَدْهُوشاً :

« كَيْفَ تَسْأَلُ هَذَا السُّؤَالَ ؟ أَفِي « بَغْدَادَ » كُلِّهَا مَنْ يَجْهَلُ « السِّنْدِبَادَ الْبَحْرِيَّ » — صَاحِبَ هَذَا الْقَصْرِ — الَّذِي مَلَأَتْ شُهْرَتُهُ الْآفَاقَ ، وَالَّذِي رَكِبَ الْبِحَارَ ، وَجَابَ الْأَقْطَارَ وَرَأَى عَجَائِبَ الدُّنْيَا ؟ »

شَكْوَى الهندبادِ الحمَّالِ

ثُمَّ عَادَ الْحَمَّالُ إِلَى مَكَانِهِ فَجَلَسَ يُفَكِّرُ فِي هَذَا النَّعِيمِ ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَسْمَعُ النَّاسَ يَتَحَدَّثُونَ بِمَا نَالَهُ « السِّنْدِبَادُ » مِنْ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ .



وَنَظَرَ « الْهِنْدِبَادُ الْحَمَّالُ » إِلَى جَمَالِ الْحَدِيقَةِ وَفَخَامَةِ الْقَصْرِ وَوَفْرَةِ مَا يَحْوِيهِ مِنْ غِنًى وَنِعْمَةٍ ، وَرَأَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ بُؤْسٍ وَشَقَاءٍ ، فَصَاحَ غَاضِباً :

« سُبْحَانَكَ رَبِّى تُغْنِى مَنْ تَشَاءُ ، وَتُفْقِرُ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، فَأَنَا أَتَحَمَّلُ الْهُمُومَ وَالْآلَامَ ، وَأُقَاسِى الْمَتَاعِبَ وَالْأَهْوَالَ لِلْحُصُولِ عَلَى قُوتِى وَقُوتِ عِيَالِى ، بَيْنَمَا يَنْعَمُ « السِّنْدِبَادُ » بِهَذَا الْقَصْرِ الْفَخْمِ وَمَا يَحْوِيهِ مِنْ ثَرْوَةٍ وَنَعِيمٍ ، دُونَ أَنْ يَتَكَبَّدَ أَىَّ عَنَاءٍ !

فَمَاذَا صَنَعَ « السِّنْدِبَادُ » حَتَّى اسْتَحَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ ؟ وَمَاذَا فَعَلْتُ أَنَا حَتَّى كُتِبَ عَلَىَّ هَذَا الشَّقَاءُ ؟

أَأُصْبِحُ فِى تَعَبٍ دَائِمٍ أَعِيشُ شَقِيًّا وَقَدْ زَادَ حِمْلِى
وَغَيْرِى سَعِيدٌ — بِلَا شِقْوَةٍ — وَمَا حَمَلَ الدَّهْرَ يَوْمًا كَحِمْلِى ؟ »

☆
☆ ☆

وَبَيْنَمَا « الْهِنْدِبَادُ » مُسْتَغْرِقٌ فِى هَذِهِ التَّأَمُّلَاتِ إِذْ خَرَجَ مِنَ الْقَصْرِ خَادِمٌ يَدْعُوه إِلَى مُقَابَلَةِ سَيِّدِهِ ، فَخَشِىَ الْحَمَّالُ عَاقِبَةَ الْأَمْرِ ، وَأَدْرَكَ أَنَّ « السِّنْدِبَادَ » قَدْ سَمِعَ — بِلَا شَكٍّ — كُلَّ مَا قَالَ ، فَاعْتَذَرَ إِلَى الْخَادِمِ مُحَاوِلًا أَنْ يُفْلِتَ مِنْ يَدِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَذَهَبَ مَعَهُ خَائِفًا يَتَوَقَّعُ الشَّرَّ .

فِى حَضْرَةِ السِّنْدِبادِ

وَسَارَ الْحَمَّالُ مَعَهُ حَتَّى بَلَغَ غُرْفَةً فَخْمَةً ، فِى وَسَطِهَا مَائِدَةٌ

حَوَتْ مَا لَذَّ مِنْ أَطْيَبِ ٱلْأَطْعِمَةِ وَٱلْأَشْرِبَةِ وَٱلْفاكِهَةِ وَالنُّقْلِ ، وَرَأَى جَمَاعَةً مِنْ سَرَاةِ ٱلْقَوْمِ ، كَمَا رَأَى فِي صَدْرِ ٱلْمَجْلِسِ رَجُلاً حَسَنَ الصُّورَةِ جَلِيلَ ٱلْقَــدْرِ مَهِيبَ الطَّلْعَةِ وَقَدْ بَدَا فِي لِحْيَتِهِ ٱلشَّيْبُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ « السِّنْدِبَادُ » صَاحِبُ ٱلْقَصْرِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ — وَهُوَ مُنَــكِّسٌ رَأْسَهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْخَجَلِ — فَهَشَّ إِلَيْهِ « السِّنْدِبَادُ » وَقَرَّبَهُ مِنْهُ حَتَّى أَذْهَبَ عَنْهُ خَوْفَهُ ، وَدَعَاهُ إِلَى الطَّعَامِ فَأَكَلَ حَتَّى شَبِـعَ .

فَسَأَلَهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ ٱلْبَحْرِىُّ » عَنِ ٱسْمِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : « أَعِدْ عَلَىَّ ٱلْآنَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ — مُنْذُ زَمَنٍ يَسِيرٍ — تَحْتَ ٱلْقَصْرِ ! »

***

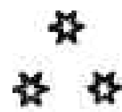
هُنَالِكَ ٱرْتَبَكَ « ٱلْهِنْـدِبَادُ » ٱلْحَمَّالُ وَبَدَتْ عَلَيْهِ دَلَائِلُ ٱلْحَيْرَةِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« مَعْذِرَةً يَا سَيِّدِى ، فَقَدْ دَفَعَنِى مَا أُعَانِيهِ مِنَ ٱلْفَقْرِ ، وَمَا أُكَابِدُهُ مِنَ ٱلْمَتَاعِبِ ، إِلَى التَّفَوُّهِ بِمَا قُلْتُ ، فَتَجَاوَزْ عَنْ إِسَاءَتِى وَلَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا فَرَطَ مِنِّى ! »

فَقَالَ لَهُ « ٱلسِّنْدِبَادُ » :

« إِنِّى لَا أُرِيدُ أَنْ أُؤَاخِذَكَ بِشَىْءٍ مِمَّا قُلْتَ ، وَإِنَّمَا أَشْفَقْتُ عَلَيْكَ وَرَثَيْتُ لَكَ ، وَقَدْ صِرْتَ لِى — مُنْذُ ٱلْيَوْمِ — أَخًا وَصَدِيقًا ،

وَلَـكِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُبَيِّنَ لَكَ حَقِيقَةً غَابَتْ عَنْكَ ، وَأُزِيلَ مَا عَلِقَ بِذِهْنِكَ مِنَ الْوَهْمِ ، فَقَدْ ظَنَنْتَ أَنَّ هَذِهِ الثَّرْوَةَ الطَّائِلَةَ قَدْ جَاءَتْنِى دُونَ مَشَقَّةٍ أَوْ عَنَاءٍ ، مَعَ أَنِّى لَمْ أَحْصُلْ عَلَيْهَا إِلاَّ بَعْدَ أَنْ قَاسَيْتُ مِنَ الْمَصَاعِبِ وَلاَقَيْتُ مِنَ الْأَهْوَالِ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْوَصْفُ .



وَسَأَقُصُّ عَلَيْكَ مَا حَدَثَ لِى فِى أَسْفَارِى السَّبْعَةِ ، وَمَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْمَخَاطِرِ الَّتِى تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا الْوِلْدَانُ ، لِتُدْرِكَ بِنَفْسِكَ مِقْدَارَ مَا عَانَيْتُ مِنَ الْمَتَاعِبِ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى هَـذِهِ السَّعَادَةِ الَّتِى تَرَاهَا وَتَعْجَبُ مِنْهَا .

أسئلة

أتينا بهذه الأسئلة لتكون نموذجا لحضرات المدرسين ينسجون على منواله فيما يلى :

(١) ما اسم الحمال ؟ (٢) فى أى بلد كان يقيم ؟

(٣) فى زمن أى خليفة ؟ (٤) ما اسم صاحب القصر ؟

(٥) ماذا قال الخادم حين سأله الحمال عن اسم صاحب القصر ؟

(٦) ماذا قال الحمال حين رأى فخامة القصر وجمال الحديقة ؟

(٧) ماذا رأى الحمال فى غرفة السندباد ؟

(٨) كيف سلم عليه الحمال ؟ (٩) كيف قابله السندباد ؟

(١٠) هل وصل السندباد الى هذه الثروة الطائلة بلا عناء ؟

(١١) من الذى ظن ذلك ؟ (١٢) ومن الذى بين هذا الخطأ ؟

(١٣) اكتب خلاصة وجيزة لهذه القصة .

على ظهر حوت

١ – السِّنْدِبادُ بَعْدَ وَفاةِ أبيهِ

كَانَ أَبِي مِنْ كِبارِ تُجَّارِ « بَغْدادَ » ، فَلَمَّا مَاتَ تَرَكَ لِي ثَرْوَةً طَائِلَةً – وَكُنْتُ حِينَئِذٍ شابًّا طَائِشًا – فَأَخَذْتُ أُنْفِقُ عَلَى نَفْسِي وَعَلَى أَصْحابِي – عَنْ سَعَةٍ – مِنْ هَذَا الْمَالِ الَّذِي لَمْ أَتَكَبَّدْ فِي جَمْعِهِ أَيَّ عَنَاءٍ ، وَظَلِلْتُ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ ، دُونَ أَنْ أَتَدَبَّرَ عَوَاقِبَ هَذَا الإِسْرَافِ .

ثُمَّ انْتَبَهْتُ مِنْ غَفْلَتِي – ذَاتَ يَوْمٍ – فَرَأَيْتُ مَالِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلاَّ الْقَلِيلُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّنِي – إِذَا ظَلِلْتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ – ضَاعَ كُلُّ مَا أَمْلِكُ ، وَكَانَ عَاقِبَتِي الإِفْلاَسُ وَالْخَرَابُ . وَرُبَّمَا اضْطُرِرْتُ إِلَى سُؤَالِ النَّاسِ . فَجَزِعْتُ مِنْ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ السَّيِّئَةِ ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي : « إِنَّ الْفَقْرَ – فِي آخِرِ أَيَّامِ الإِنْسَانِ – وَاحْتِمالَ ذُلِّ السُّؤَالِ ، مِمَّا لاَ تَرْضَاهُ نَفْسُ الْكَرِيمِ ، وَإِنَّ الْكَسَلَ مِفْتَاحُ الْفَقْرِ » وَذَكَرْتُ تِلْكَ الْحِكْمَةَ الصَّادِقَةَ الَّتِي يَقُولُهَا النَّاسُ :

« مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ »

فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ ، وَبِعْتُ كُلَّ مَا بَقِيَ لَدَىَّ مِنْ مَتَاعٍ ، وَاشْتَرَيْتُ بِثَمَنِهِ بَضَائِعَ أَتَّجِرُ فِيهَا ، وَسَافَرْتُ — مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ التُّجَّارِ — مِنْ مَدِينَةِ « بَغْدَادَ » حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةِ « الْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَقْلَعَتْ بِنَا سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَسَارَتْ فِي طَرِيقِ الْخَلِيجِ الْفَارِسِيِّ .

٢ – دُوَارُ الْبَحْرِ

وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ أَوَّلَ رِحْلَةٍ لِي ، فَلَمْ أَكَدْ أَرْكَبُ الْبَحْرَ حَتَّى اعْتَرَانِي دُوَارٌ أَفَقْتُ مِنْهُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ أَلِفْتُ هَوَاءَ الْبَحْرِ - بَعْدَ ذَلِكَ - وَعَادَتْ إِلَىَّ صِحَّتِي .

وَظَلَّتِ السَّفِينَةُ سَائِرَةً بِنَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ ، وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَنَحْنُ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي فِي كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْنَا بِهِ .

٣ – عَلَى ظَهْرِ حُوتٍ

وَبَيْنَمَا نَحْنُ سَائِرُونَ فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، إِذْ لَاحَتْ لَنَا جَزِيرَةٌ صَغِيرَةٌ مُرْتَفِعَةٌ عَنْ سَطْحِ الْمَاءِ فَاقْتَرَبْنَا مِنْهَا ، وَنَزَلَ بِهَا بَعْضُ التُّجَّارِ — وَنَزَلْتُ مَعَهُمْ — وَبَقِينَا عَلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ زَمَنًا وَنَحْنُ نَلْهُو وَنَلْعَبُ حَتَّى جَاءَ وَقْتُ الْغَدَاءِ ، فَأَتَيْنَا بِخُشُبٍ مِنَ السَّفِينَةِ وَأَوْقَدْنَا بِهَا النَّارَ لِنَطْبُخَ عَلَيْهَا طَعَامَنَا ، وَلَمْ نَكَدْ نُوقِدُ النَّارَ

حَتَّى اهْتَزَّتْ بِنَا الْجَزِيرَةُ اهْتِزَازاً عَنِيفاً ، فَصَرَخْنَا مِنَ الْفَزَعِ وَالرُّعْبِ وَصَاحَ بِنَا رُبَّانُ السَّفِينَةِ :

« انْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ الْهَلَاكُ ! »

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ قَوْلَهُ حَتَّى غَاصَتِ الْجَزِيرَةُ كُلُّهَا فِي الْبَحْرِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَأَسْرَعَ إِلَى السَّفِينَةِ مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنْهَا فَنَجَا وَغَرِقَ الْبَاقُونَ .

٤ — حَقِيقَةُ الْجَزِيرَةِ

وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ جَزِيرَةً — كَمَا حَسِبْنَا — بَلْ حُوتاً هَائِلاً مِنْ حِيتَانِ الْبَحْرِ كَانَ نَائِماً عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا أَوْقَدْنَا عَلَيْهِ النَّارَ أَحَسَّ الْحَرَارَةَ فَاسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ وَغَاصَ فِي الْبَحْرِ ، فَنَجَا مَنْ نَجَا وَغَرِقَ مَنْ غَرِقَ .

٥ — كَيْفَ نَجَوْتُ مِنَ الْغَرَقِ

أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ بَعِيداً عَنِ السَّفِينَةِ فَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا وَقَدْ كِدْتُ أَغْرَقُ لَوْ لَمْ أَتَعَلَّقْ بِلَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ الَّذِي أَتَيْنَا بِهِ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقُودِ ، وَنَادَيْتُ مَنْ فِي السَّفِينَةِ بِأَعْلَى صَوْتِي فَلَمْ يَسْمَعْنِي أَحَدٌ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الرُّعْبِ .

وَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ تَخْتَفِي عَنْ نَاظِرِي ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَمْوَاجِ الْهَائِجَةِ ، وَالْغَرَقُ يُهَدِّدُنِي فِي كُلِّ لَحْظَةٍ .

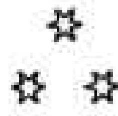
وَلَمَّا أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ أَيْقَنْتُ بِالْهَلَاكِ ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَيْئَسْ رَغْمَ مَا حَلَّ بِي مِنَ التَّعَبِ وَالْخَوْفِ ، وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ طُولَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قَذَفَتْنِي الْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ عَالِيَةٍ فِيهَا أَشْجَارٌ مُطِلَّةٌ عَلَى الْبَحْرِ ، وَقَدْ وَجَدْتُ — لِحُسْنِ حَظِّي —



فَرْعَ شَجَرَةٍ مُتَدَلِّيًا ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ وَتَمَكَّنْتُ بِذَلِكَ مِنَ الصُّعُودِ إِلَى الْجَزِيرَةِ بَعْدَ تَعَبٍ شَدِيدٍ .

وَلَمْ أَكَدْ أَصْعَدُ إِلَيْهَا حَتَّى ارْتَمَيْتُ عَلَى أَرْضِهَا — وَأَنَا مَنْهُوكُ الْقُوَى مِنْ شِدَّةِ مَا لَقِيتُ — وَبَقِيتُ نَائِمًا طُولَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، ثُمَّ أَفَقْتُ

مِنْ نَوْمِى فِى صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِى ، وَكَانَتْ قَدَمَاىَ قَدْ وَرِمَتَا وَلَـكِنَّنِى لَمْ أَعْبَأْ بِذَلِكَ ، فَمَشَيْتُ مُتَوَكِّئاً عَلَى عَصاً قَطَعْتُهَا مِنْ غُصْنِ شَجَرَةٍ ، وَسِرْتُ أَبْحَثُ عَنْ طَعَامٍ آكُلُهُ وَقَدْ كَادَ يُهْلِكُنِى الْجُوعُ .



عَلَى أَنَّنِى وَجَدْتُ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ كَثِيراً مِنَ الْبُقُولِ النَّاضِجَةِ وَرَأَيْتُ فِيهَا عَيْناً مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ ، فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً ، وَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ، وَشَرِبْتُ حَتَّى ارْتَوَيْتُ !

٦ ــ خَدَمُ الْمَهَرَاجا

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ زَالَ مَا بِى مِنْ ضَعْفٍ ، وَعَادَ إِلَىَّ نَشَاطِى الْأَوَّلُ فَرُحْتُ أَمْشِى فِى الْجَزِيرَةِ ، وَبَيْنَمَا أَنَا كَذَلِكَ ، إِذْ لَاحَ لِى شَبَحٌ مِنْ بَعِيدٍ ، فَسِرْتُ إِلَيْهِ حَتَّى اقْتَرَبْتُ مِنْهُ فَإِذَا بِهِ فَرَسٌ تَرْعَى الْعُشْبَ ــ وَهِىَ مُقَيَّدَةٌ ــ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَ رِجَالٍ يَتَحَدَّثُونَ فِى سِرْدَابٍ تَحْتَ الْأَرْضِ فَدُهِشْتُ لِذَلِكَ ، وَإِنِّى لَفِى دَهْشَتِى إِذْ أَقْبَلَ عَلَىَّ رَجُلٌ لَا أَعْرِفُهُ ، فَسَأَلَنِى عَنْ سَبَبِ مَجِيئِى إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِقِصَّتِى فَدُهِشَ لَهَا ، وَذَهَبَ بِى إِلَى السِّرْدَابِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ جَمَاعَةً يَنْتَظِرُونَهُ فِيهِ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتِى ، وَقَدَّمُوا إِلَىَّ طَعَامًا وَشَرَابًا فَأَكَلْتُ وَشَرِبْتُ . ثُمَّ سَأَلْتُهُمْ عَنْ سَبَبِ مَجِيئِهِمْ إِلَى

هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ وَاخْتِفَائِهِمْ فِي هَذَا السِّرْدَابِ ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّهُمْ خَدَمُ ٱلْمَلِكِ « ٱلْمَهَرَاجَا » صَاحِبِ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَأَنَّهُ يُوفِدُهُمْ — فِي مِثْلِ



هَذَا ٱلْوَقْتِ مِنْ كُلِّ عَامٍ — وَمَعَهُمْ بَعْضُ أَفْرَاسِهِ لِتَرْعَى فِي هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ، حَتَّى يَخْرُجَ إِلَيْهَا حِصَانُ ٱلْبَحْرِ فَتَحْمِلَ مِنْهُ ، فَإِذَا حَاوَلَ أَخْذَهَا مَعَهُ ، خَرَجُوا عَلَيْهِ مِنَ السِّرْدَابِ فَيَفِرُّ مِنْهُمْ هَارِبًا إِلَى ٱلْبَحْرِ ، ثُمَّ يَعُودُونَ بِهَا إِلَى بِلَادِهِمْ حَيْثُ تَلِدُ مُهْرًا أَصِيلًا عَدِيمَ ٱلْمِثَالِ !

٧ — حِصَانُ ٱلْبَحْرِ

وَهُنَا سَمِعْنَا صُرَاخَ حِصَانِ ٱلْبَحْرِ ، فَنَظَرْنَا مِنْ ثُقْبِ السِّرْدَابِ ،

فَرَأَيْنَاهُ يُحَاوِلُ أَخْذَ ٱلْفَرَسِ مَعَهُ بِقُوَّةٍ ، فَطَلَعَ عَلَيْهِ ٱلرِّجَالُ مِنَ السِّرْدَابِ ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَلَّى هَارِباً إِلَى ٱلْبَحْرِ .

٨ – فِي حَضْرَةِ ٱلْمَهَرَاجَا

وَفِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي أَرْكَبُونِي مَعَهُمْ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بِلاَدِ ٱلْهِنْدِ حَيْثُ قَدَّمُونِي إِلَى مَلِكِهِمُ « ٱلْمَهَرَاجَا » فَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِي ، فَدَهِشَ لِذَلِكَ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَسُرَّ بِي سُرُوراً عَظِيماً ، وَأَكْرَمَنِي وَقَرَّبَنِي إِلَيْهِ .

٩ – عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ

وَكَانَ لِهَـذَا ٱلْبَلَدِ مَرْفَأٌ تَرْسُو عَلَيْهِ السُّفُنُ التِّجَارِيَّةُ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ مُخْتَلَفِ بِلاَدِ ٱلدُّنْيَا ، فَكُنْتُ أُكْثِرُ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ مُسَائِلاً ٱلْوَافِدِينَ عَنْ أَخْبَارِ « بَغْدَادَ » دُونَ أَنْ أَظْفَرَ مِنْهُمْ بِطَائِلٍ ، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ زَمَنٌ طَوِيلٌ ، فَمَلِلْتُ ٱلْغُرْبَةَ وَاشْتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى رُؤْيَةِ وَطَنِي وَأَهْلِي .

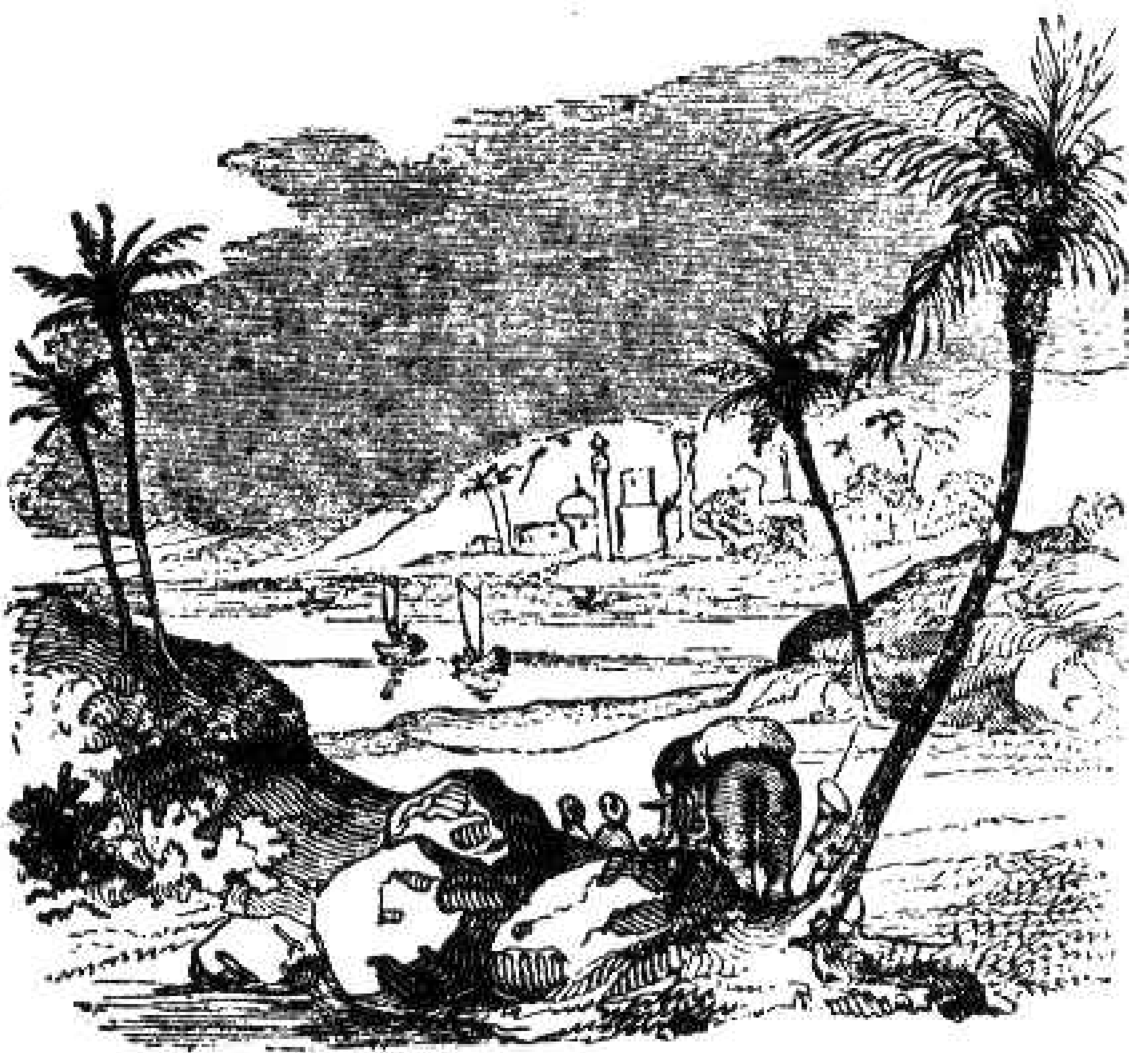
١٠ – عَجَائِبُ ٱلْهِنْـــدِ

وَكُنْتُ أَخْرُجُ أَحْيَانًا إِلَى بَعْضِ ٱلْجَزَائِرِ ٱلْقَرِيبَةِ فَأَرَى فِيهَا عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ كَثِيرَةً .

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا رَأَيْتُهُ سَمَكٌ كَبِيرٌ يَبْلُغُ طُولُهُ مِائَةَ ذِرَاعٍ إِلَى مِائَتَيْنِ، وَلَهُ وَجْهٌ كَوَجْهِ الْبُومِ، وَقَدْ نَفَرْتُ مِنْهُ كَمَا نَفَرَ مِنِّي، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ ارْتَاعَ مِنْ رُؤْيَتِي كَمَا ارْتَعْتُ مِنْ رُؤْيَتِهِ.

١١ – اللِّقَاءُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ خَرَجْتُ كَعَادَتِي إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ سَفِينَةً مُقْبِلَةً، وَلَمَّا رَسَتْ عَلَى الشَّاطِئِ وَأَنْزَلَتْ مَا بِهَا مِنَ الْبَضَائِعِ رَأَيْتُ عَلَى بَعْضِ أَحْمَالِهَا اسْمَ «السِّنْدِبَادِ» فَلَمَّا أَنْعَمْتُ النَّظَرَ فِي رُبَّانِهَا عَرَفْتُهُ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ صَاحِبِ هٰذِهِ الْأَحْمَالِ فَأَجَابَنِي مُتَأَثِّراً حَزِيناً:



« وَا أَسَفَا عَلَيْهِ! إِنَّهُ « السِّنْدِبَادُ » وَقَدْ غَرِقَ أَثْنَاءَ سَفَرِنَا، وَكَانَ سَبَبَ غَرَقِهِ أَنَّهُ طَلَعَ – مَعَ بَعْضِ رِفَاقِهِ مِنَ التُّجَّارِ – عَلَى ظَهْرِ حُوتٍ كَبِيرٍ، كُنَّا نَحْسَبُهُ جَزِيرَةً، فَلَمَّا غَاصَ الْحُوتُ غَرِقُوا وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ قَرِيباً مِنَ الْمَرْكَبِ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ جَمِيعاً. وَقَدْ أَخَذْتُ

عَلَى نَفْسِي أَنْ أَبِيعَ بَضَائِعَهُ وَأُعْطِيَ أَهْلَهُ ثَمَنَهَا مَتَى عُدْتُ إِلَى «بَغْدَادَ» فَقُلْتُ لِرُبَّانِ السَّفِينَةِ: «أَنَا السِّنْدِبَادُ الَّذِي تَذْكُرُهُ وَهَذِهِ بِضَاعَتِي!» فَصَاحَ الرُّبَّانُ فِي وَجْهِي صَيْحَةً عَظِيمَةً، وَقَالَ لِي غَاضِبًا:

«أَمَا وَاللهِ لَقَدْ فَسَدَتِ الذِّمَمُ وَضَاعَتِ الْأَمَانَةُ مِنَ النَّاسِ! كَيْفَ تَدَّعِي أَنَّكَ «السِّنْدِبَادُ» وَقَدْ رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي وَهُوَ يَغْرَقُ فِي الْبَحْرِ؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «لَا تَغْضَبْ عَلَيَّ، وَلَا تَعْجَلْ بِتَكْذِيبِ مَا أَقُولُ.»

*
* *

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي، وَذَكَرْتُ لَهُ جَمِيعَ مَا دَارَ بَيْنَنَا مِنَ الْكَلَامِ — مُنْذُ خَرَجْنَا مِنَ «الْبَصْرَةِ» إِلَى أَنْ غَاصَ بِنَا الْحُوتُ — فَظَهَرَ لَهُ صِدْقُ قَوْلِي، وَفَرِحَ بِنَجَاتِي فَرَحًا شَدِيداً وَعَانَقَنِي، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ رِفَاقِي يُهَنِّئُونَنِي بِسَلَامَتِي وَنَجَاتِي مِنَ الْغَرَقِ. ثُمَّ شَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ أَمَانَتَهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أُكَافِئَهُ عَلَى صَنِيعِهِ فَرَفَضَ وَلَمْ يَقْبَلْ مِنِّي شَيْئًا.

١٢ — الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

فَتَخَيَّرْتُ هَدِيَّةً نَفِيسَةً قَدَّمْتُهَا إِلَى «الْمَهْرَاجَا» فَسَأَلَنِي: «مِنْ أَيْنَ أَحْضَرْتَهَا؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ، فَتَبَيَّنَ لَهُ صِدْقُ كَلَامِي وَقَبِلَ هَدِيَّتِي مَسْرُوراً، ثُمَّ أَمَرَ لِي بِهَدِيَّةٍ ثَمِينَةٍ.

وَلَمَّا اسْتَأْذَنْتُهُ فِي السَّفَرِ أَذِنَ لِي — بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَ لِي أَسَفَهُ عَلَى فِرَاقِي — فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً ، وَبِعْتُ فِي بَلَدِهِ كُلَّ مَا مَعِي مِنَ الْبَضَائِعِ بِأَغْلَى ثَمَنٍ ، وَاشْتَرَيْتُ بَدَلَهَا بَضَائِعَ أُخْرَى .

وَعُدْتُ إِلَى بِلَادِي بِأَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ ، بَعْدَ أَنْ سَارَ بِنَا الْمَرْكَبُ آمِناً ، وَكَانَ الْبَحْرُ هَادِئاً وَالرِّيحُ طَيِّبَةً فَلَمْ نَلْقَ أَيَّ عَنَاءٍ فِي سَفَرِنَا حَتَّى بَلَغْنَا « الْبَصْرَةَ » .

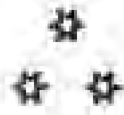
١٣ — فِي بَغْدَادَ

ثُمَّ ذَهَبْنَا مِنَ « الْبَصْرَةِ » إِلَى « بَغْدَادَ » حَيْثُ لَقِيَنِي أَهْلِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي سَالِماً ، وَاشْتَرَيْتُ قُصُوراً فَخْمَةً وَعَبِيداً وَغِلْمَاناً كَثِيرِينَ ، وَأَصْبَحْتُ مِنْ أَكْبَرِ أَغْنِيَاءِ « بَغْدَادَ » ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَعَزَمْتُ عَلَى الْإِقَامَةِ فِي بَلَدِي بَعِيداً عَنْ مَشَقَّاتِ السَّفَرِ وَأَهْوَالِ الْبَحْرِ ، وَأَنْسَتْنِي رَاحَةُ الْبَالِ مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْأَهْوَالِ .

١٤ — دَهْشَةُ الْحَاضِرِينَ

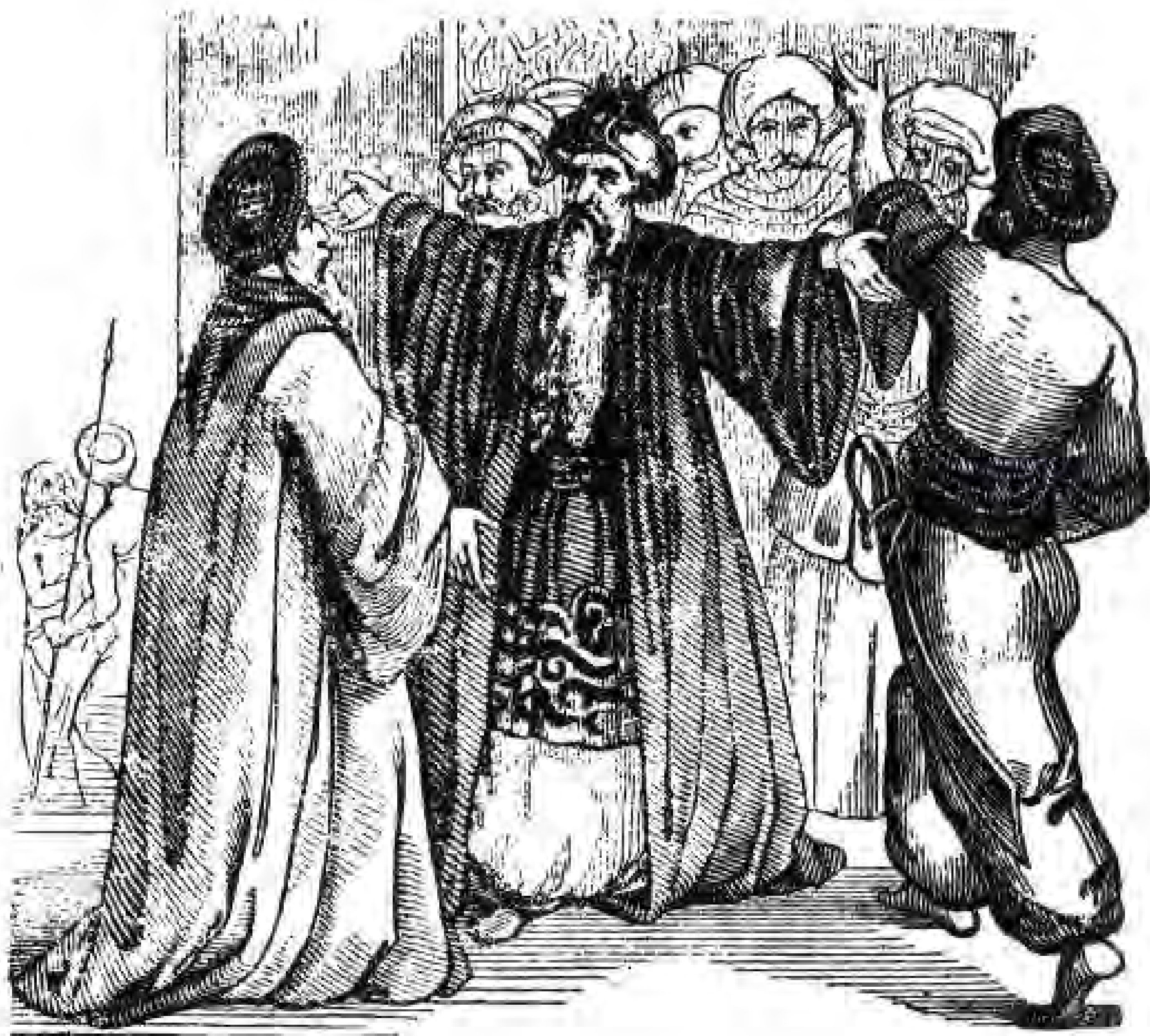
وَلَمَّا انْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ ، الْتَفَتَ إِلَى « الْهِنْدِبَادِ » الْحَمَّالِ وَقَالَ لَهُ مُبْتَسِماً : « هَـذَا مَا حَدَثَ لِي فِي الرِّحْلَةِ الْأُولَى

وَسَأُخْبِرُكَ غَدًا بِمَا حَدَثَ لِي فِي رِحْلَتِي ٱلثَّانِيَةِ ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِيهَا مِنَ ٱلْعَجَائِبِ ! »



فَدُهِشَ « ٱلهِنْدِبَادُ ٱلْحَمَّالُ » وَعَجِبَ جَمِيعُ ٱلْحَاضِرِينَ مِمَّا سَمِعُوا.

ثُمَّ أَمَرَ « السِّنْدِبَادُ » بِمِائَةِ دِينَارٍ لِلْحَمَّالِ وكَسَاهُ حُلَّةً نَفِيسَةً ، فَدَعَا لَهُ وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً مَسْرُوراً ، وَخَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ ٱلْحَاضِرِينَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى « ٱلسِّنْدِبَادِ » فِي ٱلْغَدِ.

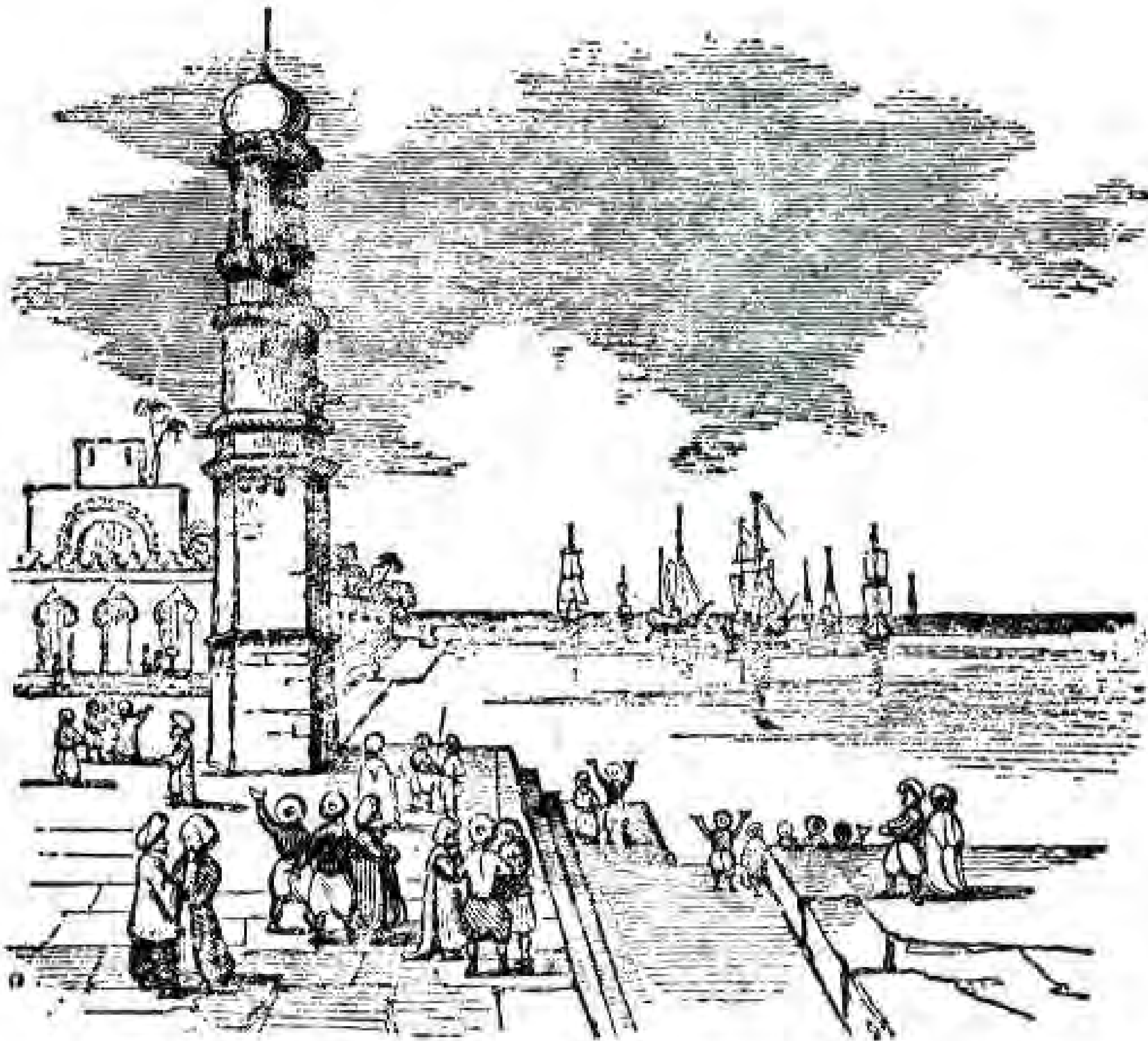


وَلَمَّا حَضَرُوا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي بَدَأَ « ٱلسِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ الثَّانِيَةَ فقَالَ :

فى وادى الأفاعى

١ – كَيْفَ نَسِيَنِي رِفَاقِي

حَدَّثْتُكُمْ أَمْسِ أَنِّي عَزَمْتُ عَلَى الْإِقَامَةِ فِي « بَغْدَادَ » طُولَ حَيَاتِي هَادِئَ الْبَالِ حَتَّى لاَ أُعَرِّضَ نَفْسِي مَرَّةً أُخْرَى لِمَخَاطِرِ السَّفَرِ وَمَخَاوِفِهِ ، وَلَـكِنَّنِي – بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ – ضَجِرْتُ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْهَادِئَةِ ، وَمَلِلْتُ عِيشَةَ الْكَسَلِ ، وَاشْتَقْتُ إِلَى



السَّفَرِ وَرُكُوبِ الْبَحْرِ ، فَاشْتَرَيْتُ بَضَائِعَ كَثِيرَةً ، وَسَافَرْتُ مِنْ « بَغْدَادَ » إِلَى « الْبَصْرَةِ » حَيْثُ أَبْحَرْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ

التُّجَّارِ وَسَارَتْ بِنَا السَّفِينَةُ مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَكَانَتْ تِجَارَتُنَا رَابِحَةً حَتَّى بَلَغْنَا جَزِيرَةً كَبِيرَةً، جَمِيلَةَ الْمَنْظَرِ، فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْفَاكِهَةِ تَتَخَلَّلُهَا الْجَدَاوِلُ وَالْأَنْهَارُ.

* * *

فَنَزَلْنَا بِهَا فَلَمْ نَجِدْ فِيهَا أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، فَأَكَلْنَا مِنْ فَاكِهَتِهَا وَشَرِبْنَا مِنْ مَائِهَا الْعَذْبِ، ثُمَّ ذَهَبَ أَصْحَابِي يَجُولُونَ فِي الْجَزِيرَةِ وَجَلَسْتُ مُنْفَرِدًا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَأَمَامِي جَدْوَلٌ مِنَ الْمَاءِ عَلَى جَانِبَيْهِ الْأَزْهَارُ، فَأَخَذَتْنِي سِنَةٌ مِنَ النَّوْمِ — وَلَمْ أَعْلَمْ كَمْ سَاعَةً نِمْتُ — وَمَا كِدْتُ أَسْتَيْقِظُ حَتَّى تَمَلَّكَنِي الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ، فَقَدْ بَحَثْتُ عَنْ رِفَاقِي فَلَمْ أَعْثُرْ لَهُمْ عَلَى أَثَرٍ!

* * *

هُنَالِكَ عَلِمْتُ أَنَّ السَّفِينَةَ قَدْ أَقْلَعَتْ بِهِمْ دُونَ أَنْ يَنْتَبِهَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى غِيَابِي، فَأَسْرَعْتُ إِلَى الشَّاطِئِ — وَأَنَا كَالْمَجْنُونِ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ الْجَزَعِ وَالْيَأْسِ — وَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ تَغِيبُ عَنْ نَاظِرِي شَيْئًا فَشَيْئًا حَتَّى اخْتَفَتْ، فَصَرَخْتُ مِنَ الْأَلَمِ وَتَمَلَّكَنِي الْيَأْسُ وَالْفَزَعُ فَوَقَعْتُ عَلَى الْأَرْضِ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، وَبَقِيتُ كَذَلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا، وَلَمَّا أَفَقْتُ أَخَذْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمَشْؤُومَةِ أَشَدَّ اللَّوْمِ وَأَنْدَمُ عَلَى سَفَرِي أَشَدَّ النَّدَمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ لَوْمٌ وَلَا نَدَمٌ!

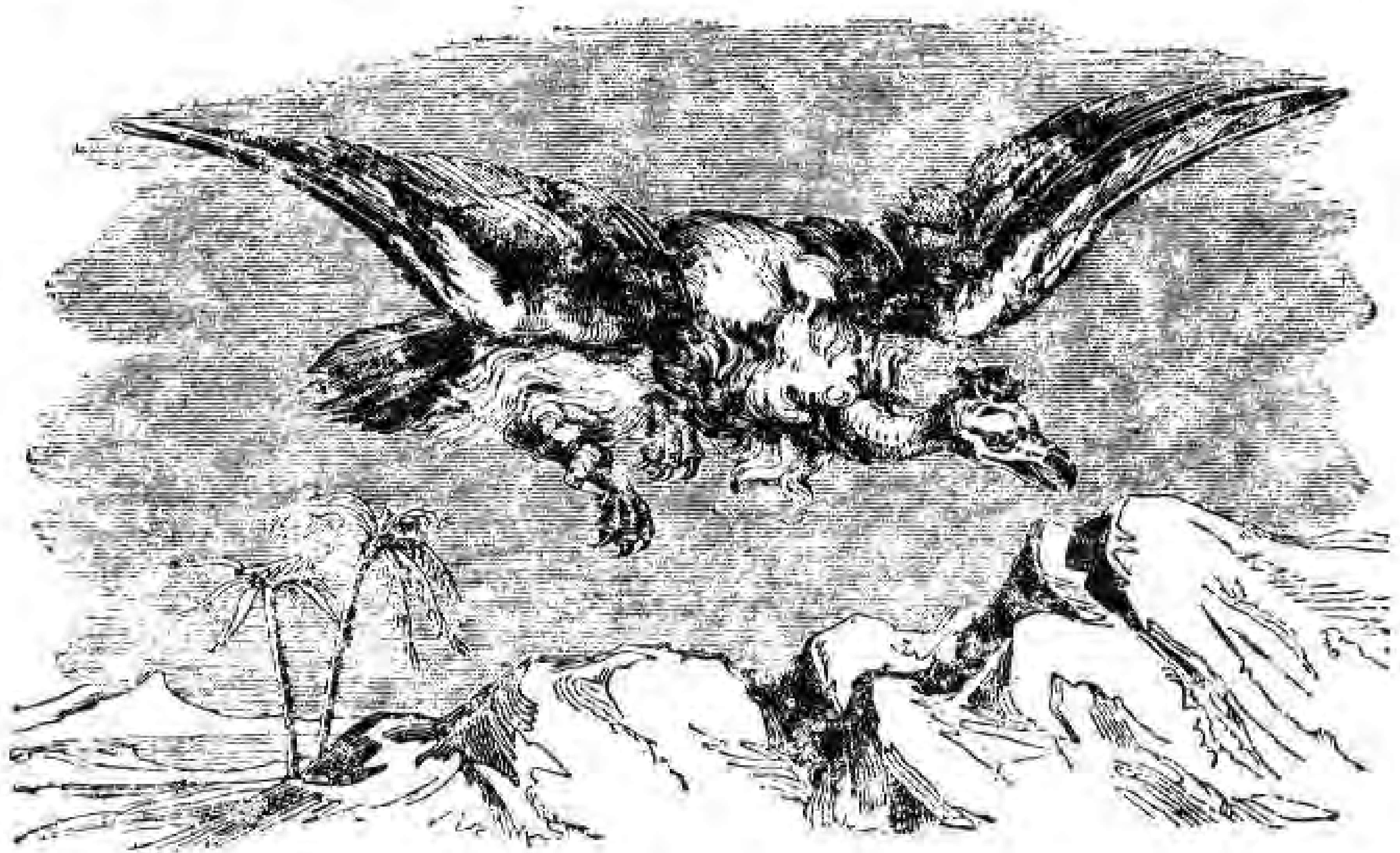
٢ – بَيضَةُ الرُّخّ

وَتَلفَّتُّ حَوْلِي فَلَمْ أَجِدْ أَحَداً ، فَتَسَلَّقْتُ شَجَرَةً عَالِيَةً وَرَمَيْتُ بِبَصَرِي فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِي الْبَحْرِ ، فَلَمْ أَرَ شَيْئاً غَيْرَ الْمَاءِ وَالسَّمَاءِ ، وَدُرْتُ بِبَصَرِي فِي الْجَزِيرَةِ ، فَرَأَيتُ – عَلَى بُعْدٍ – قُبَّةً بَيْضَاءَ عَالِيَةً تَلْمَعُ لَمعَاناً شَدِيداً فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ ، فَنَزَلْتُ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَجَرَيْتُ إِلَيْهَا بِكُلِّ قُوَّتِي حَتَّى دَنَوْتُ مِنْهَا فَرَأَيْتُهَا شَاهِقَةً ، فَلَمَسْتُهَا بِيَدِي فَإِذَا هِيَ مَلْسَاءُ لَا يُمْكِنُ الصُّعُودُ عَلَيْهَا ، وَدُرْتُ حَوْلَهَا فَلَمْ أَرَ لَهَا بَاباً وَلَا مَنْفَذاً ، فَلَمَّا قِسْتُ دَائِرَتَهَا وَجَدْتُهَا خَمْسِينَ خُطْوَةً .

٣ – طَيْرُ الرُّخّ

وَبَيْنَمَا أَنَا أَتَأَمَّلُهَا إِذْ وَجَدْتُ الدُّنْيَا قَدْ أَظْلَمَتْ ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ سَوَادٌ عَظِيمٌ حَجَبَ عَنِّي ضَوْءَ الشَّمْسِ ، فَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا هُوَ طَائِرٌ عَظِيمُ الْجِسْمِ ، فَذَكَرْتُ لِلْحَالِ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ الْمُسَافِرِينَ وَالتُّجَّارِ عَنْ طَيْرِ الرُّخِّ ، وَأَدْرَكْتُ أَنَّ هَذِهِ الْقُبَّةَ الْكَبِيرَةَ هِيَ بَيْضَتُهُ ، وَلَمْ يَكَدْ يَنْزِلُ طَيْرُ الرُّخِّ حَتَّى جَلَسَ عَلَى بَيْضَتِهِ فَاحْتَضَنَهَا بِجَنَاحَيْهِ وَنَامَ فَوْقَهَا ، فَنَظَرْتُ إِلَى مِخْلَبِهِ فَرَأَيْتُهُ – لِعِظَمِهِ – كَأَنَّهُ جِذْعُ شَجَرَةٍ ، فَحَلَلْتُ عِمَامَتِي وَرَبَطْتُ

نَفْسِي بِإِحْدَى رِجْلَيْهِ رَبْطًا مُحْكَماً ، رَجَاءَ أَنْ يَحْمِلَنِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى مَكَانٍ آخَرَ غَيْرِ هَـذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ ظَنِّي فَلَمْ يَكَدْ يَطْلُعُ الْفَجْرُ حَتَّى طَارَ ، وَمَا زَالَ يَعْلُو فِي الْفَضَاءِ حَتَّى اخْتَفَتِ الْأَرْضُ عَنْ نَاظِرِي ، وَظَلَّ طَائِراً بِي مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ثُمَّ هَبَطَ بِي فَجْأَةً إِلَى الْأَرْضِ فَأُغْمِيَ عَلَيَّ ، ثُمَّ أَفَقْتُ لِنَفْسِي



فَرَأَيْتُ طَيْرَ الرُّخِّ قَدْ وَقَفَ عَلَى الْأَرْضِ ، فَفَكَكْتُ رِبَاطِي لِلْحَالِ ، وَفَرِحْتُ بِالْخَلَاصِ مِنْ تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ .

٤ــ فِي وَادِي الْأَفَاعِي

وَلَكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَطُلْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ طَيْرَ الرُّخِّ ، قَدِ انْقَضَّ عَلَى حَيَّةٍ كَبِيرَةٍ فَابْتَلَعَهَا وَطَارَ فِي الْفَضَاءِ ، وَمَا زَالَ طَائِراً حَتَّى غَابَ عَنِّي .

فَنَظَرْتُ إِلَى مَا حَوْلِي ، فَنَدِمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلْجَزِيرَةِ وَٱلْمَجِيءِ إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي لَمْ تُكْتَبِ السَّلَامَةُ لِأَحَدٍ وَصَلَ إِلَيْهِ . فَقَدْ هَبَطَ بِي ٱلرُّخُّ — لِسُوءِ حَظِّي — إِلَى وَادٍ عَمِيقٍ تُحِيطُ بِهِ جِبَالٌ شَاهِقَةٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، وَلَيْسَ فِيهَا مَكَانٌ لِلصُّعُودِ وَلَا مَنْفَذٌ يَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْإِنْسَانُ . فَقُلْتُ لِنَفْسِي :

« إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! كُلَّمَا نَجَوْتُ مِنْ مُصِيبَةٍ وَقَعْتُ فِي مُصِيبَةٍ شَرٍّ مِنْهَا ! »

٥ — حِجَارَةُ ٱلْمَاسِ

وَنَظَرْتُ إِلَى أَرْضِ ٱلْوَادِي ، فَرَأَيْتُ حِجَارَتَهُ مِنَ ٱلْمَاسِ ، فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً ، وَلَكِنَّ فَرَحِي لَمْ يَدُمْ طَوِيلاً فَقَدْ رَأَيْتُ فِي ٱلْوَادِي كَثِيراً مِنَ ٱلْأَفَاعِي ٱلْهَائِلَةِ ٱلَّتِي تَبْتَلِعُ ٱلْفِيلَ بِسُهُولَةٍ — لِضَخَامَتِهَا وَكِبَرِ حَجْمِهَا — وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْأَفَاعِي — لِحُسْنِ حَظِّي — تَخْتَفِي فِي ٱلْكُهُوفِ وَٱلْمَغَارَاتِ أَثْنَاءَ النَّهَارِ خَوْفاً مِنْ طَيْرِ الرُّخِّ — وَهُوَ عَدُوُّهَا ٱللَّدُودُ ٱلَّذِي يَبْتَلِعُهَا كُلَّمَا ظَهَرَتْ — فَإِذَا أَظْلَمَ ٱللَّيْلُ خَرَجَتِ ٱلْأَفَاعِي كُلُّهَا إِلَى ٱلْوَادِي .

٦ – فِي ٱلْكَهْفِ

فَمَشَيْتُ فِي ذَلِكَ ٱلْوَادِي طُولَ ٱلنَّهَارِ ، وَلَمَّا جَاءَ ٱللَّيْلُ أَسْرَعْتُ إِلَى كَهْفٍ صَغِيرٍ فَدَخَلْتُهُ وَسَدَدْتُ مَنْفَذَهُ بِحَجَرٍ كَبِيرٍ حَتَّى آمَنَ شَرَّ ٱلْأَفَاعِي ، وَأَكَلْتُ مِنَ ٱلزَّادِ ٱلْقَلِيلِ ٱلَّذِي أَحْضَرْتُهُ مَعِي مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَنَامَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، فَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ فَحِيحَ ٱلْأَفَاعِي – وَهِيَ تَزْحَفُ أَمَامَ ٱلْكَهْفِ – فَيَمْتَلِئُ قَلْبِي رُعْبًا ، وَمَا زِلْتُ طُولَ ٱللَّيْلِ خَائِفًا أَتَوَقَّعُ ٱلشَّرَّ .



٧ – فِي صَبَاحِ ٱلْيَوْمِ التَّالِي

وَلَمَّا طَلَعَ ٱلصَّبَاحُ ٱنْقَطَعَ فَحِيحُ ٱلْأَفَاعِي فَعَلِمْتُ أَنَّهَا قَدْ عَادَتْ إِلَى مَخَابِئِهَا وَكُهُوفِهَا فَحَمِدْتُ ٱللهَ عَلَى ذَلِكَ ، وَخَرَجْتُ

مِنَ ٱلْكَهْفِ وَمَشَيْتُ فِى ٱلْوَادِى — وَأَنَا أُفَكِّرُ فِى هَٰذِهِ ٱلنِّهَايَةِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلَّتِى وَصَلْتُ إِلَيْهَا — وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا فِيهِ — مِنْ أَحْجَارِ ٱلْمَاسِ ٱلثَّمِينَةِ — لَا يُسَاوِى عِنْدِى شَيْئًا . وَتَمَنَّيْتُ لَوْ كَانَ فِى ذَٰلِكَ ٱلْوَادِى — بَدَلَ هَٰذِهِ ٱلْحِجَارَةِ ٱلْكَرِيمَةِ — شَىْءٌ مِنَ ٱلطَّعَامِ أَوِ ٱلشَّرَابِ .

***

وَرَأَيْتُ صَخْرَةً قَرِيبَةً مِنِّى فَجَلَسْتُ عَلَيْهَا — وَأَنَا مَهْمُومٌ لَا أَمَلَ لِى فِى ٱلْخَلَاصِ — فَغَلَبَنِى ٱلنُّعَاسُ فَنِمْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ ٱسْتَيْقَظْتُ مَذْعُورًا خَائِفًا فَرَأَيْتُ قِطَعًا كَبِيرَةً مِنَ ٱللَّحْمِ تَتَسَاقَطُ — إِلَى جَانِبِى — عَلَى أَرْضِ ٱلْوَادِى مِنْ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ .

٨ – كَيْفَ يَحْصُلُ ٱلتُّجَّارُ عَلَى ٱلْمَاسِ

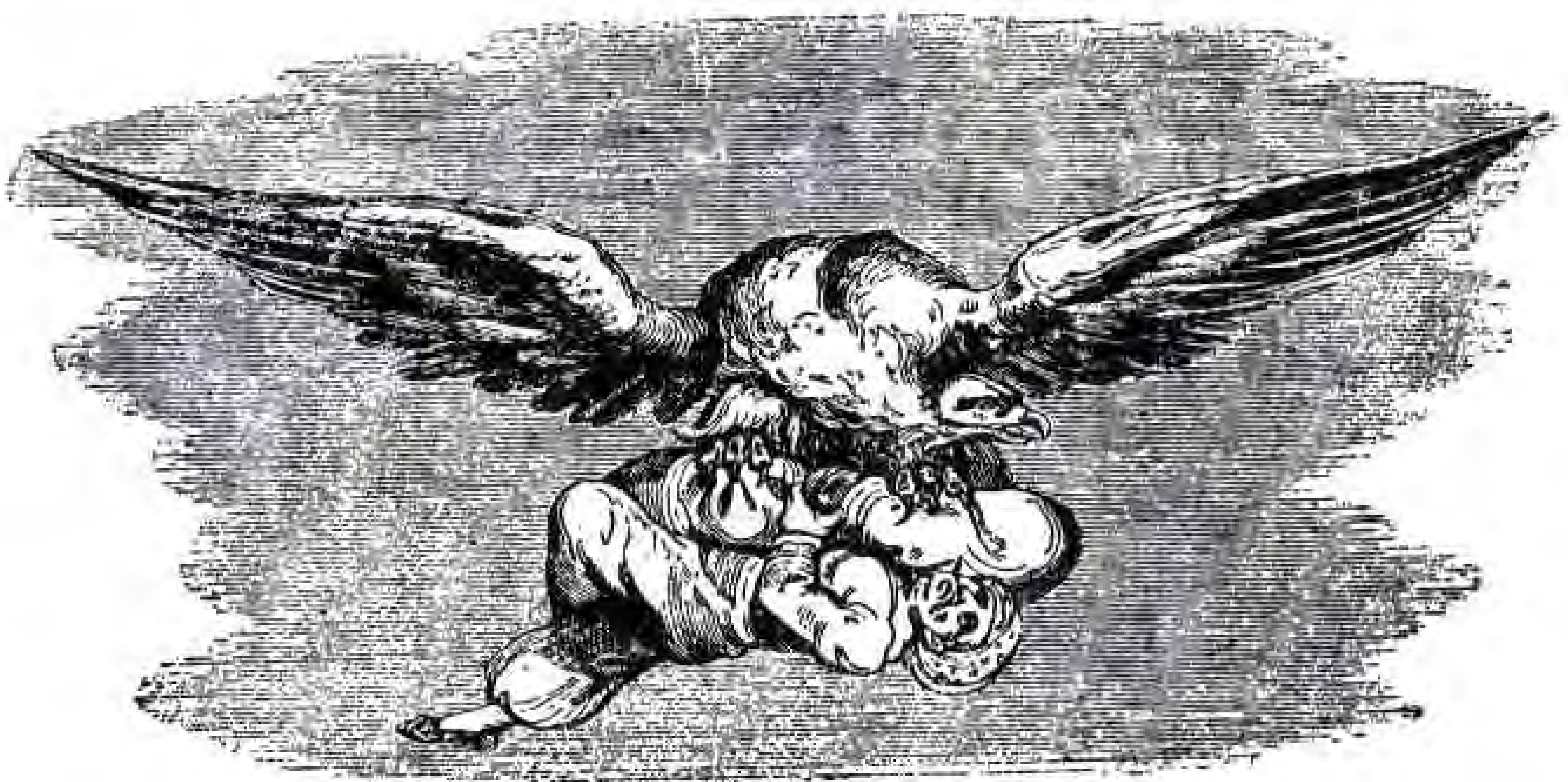
فَذَكَرْتُ مَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلتُّجَّارِ عَنْ وَادِى ٱلْمَاسِ وَعَنِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْعَجِيبَةِ ٱلَّتِى يَحْصُلُونَ بِهَا عَلَى أَحْجَارِهِ . وَهِىَ أَنْ يَذْبَحُوا ٱلْخِرَافَ وَيَسْلُخُوا مِنْهَا جِلْدَهَا ثُمَّ يُلْقُوا بِلَحْمِهَا ٱلطَّرِى إِلَى أَرْضِ ذَٰلِكَ ٱلْوَادِى فَتَلْصَقَ بِهِ أَحْجَارُ ٱلْمَاسِ . وَتَأْتِى ٱلنُّسُورُ — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ ٱلزَّمَنِ — فَتَخْطَفُهُ وَتَحْمِلُهُ إِلَى أَعْلَى ٱلْجَبَلِ ، فَيَصِيحُ بِهَا ٱلتُّجَّارُ فَتَهْرُبُ مِنْهُمْ خَائِفَةً تَارِكَةً لَهُمْ

مَا مَعَهَا مِنَ ٱللَّحْمِ ، فَيأْخُذُ كُلٌّ مِنْهُمْ مَا عَلِقَ بِقِطْعَتِهِ مِنَ ٱلْمَاسِ تَارِكًا ٱللَّحْمَ — بَعْدَ ذَلِكَ — لِلنُّسُورِ ٱلْجَائِعَةِ .

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ أَحْسَبُ هَـذَا ٱلْكَلَامَ خُرَافَةً يَرْوِيهَا ٱلنَّاسُ — عَلَى سَبِيلِ ٱلْفُكَاهَةِ وَٱلتَّسْلِيَةِ — حَتَّى رَأَيْتُهُ بِعَيْنِي حَقِيقَةً وَاقِعَةً .

٩ — كَيْفَ نَجَا ٱلسِّنْدِبَادُ مِنْ وَادِي ٱلْأَفَاعِي

فَبَدَا لِي أَمَلٌ فِي ٱلنَّجَاةِ ، وَتَخَيَّرْتُ مِنْ أَحْجَارِ ٱلْمَاسِ أَنْفَسَهَا ثُمَّ نِمْتُ عَلَى ظَهْرِي وَوَضَعْتُ فَوْقِي أَحَدَ هَذِهِ ٱلْخِرَافِ ٱلْمَذْبُوحَةِ وَأَمْسَكْتُهُ بِيَدَيَّ — بِكُلِّ قُوَّتِي — حَتَّى جَاءَتِ ٱلنُّسُورُ فَرَفَعَتْ تِلْكَ



ٱللُّحُومَ . وَجَاءَ نَسْرٌ كَبِيرٌ فَرَفَعَ ٱلذَّبِيحَةَ ٱلَّتِي كُنْتُ مُتَعَلِّقًا بِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ طَائِرًا حَتَّى بَلَغَ أَعْلَى ٱلْجَبَلِ فَوَضَعَهَا عَلَيْهِ . وَأَسْرَعَ

ٱلتُّجَّارُ إِلَى ٱلنُّسُورِ فَخَافَتْ وَهَرَبَتْ مِنْهُمْ تَارِكَةً لَهُمْ مَا مَعَهَا مِنَ اللَّحْمِ، فَوَقَفْتُ عَلَى قَدَمَيَّ، وَلَمْ يَكَدْ يَرَانِي صَاحِبُ الذَّبِيحَةِ حَتَّى تَمَلَّكَهُ ٱلْخَوْفُ وَٱلْفَزَعُ . وَنَظَرَ إِلَى ذَبِيحَتِهِ فَلَمْ يَجِدْ بِهَا شَيْئاً مِنَ ٱلْمَاسِ . فَصَرَخَ وَلَطَمَ وَجْهَهُ نَادِباً سُوءَ حَظِّهِ وَضَيَاعَ تَعَبِهِ بِلَا فَائِدَةٍ . فَدَنَوْتُ مِنْهُ وَحَيَّيْتُهُ فَاطْمَأَنَّ ، ثُمَّ أَعْطَيْتُهُ كَثِيراً مِنَ ٱلْمَاسِ ، فَتَبَدَّلَ حُزْنُهُ فَرَحًا وَسُرُوراً ، وَسَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا حَدَثَ لِي فَدُهِشَ ، وَدُهِشَ مَعَهُ جَمِيعُ التُّجَّارِ أَشَدَّ دَهْشَةٍ .

١٠ — ٱلْعَوْدَةُ إِلَى بَغْدَادَ

ثُمَّ سَافَرْتُ مَعَهُمْ إِلَى بِلَادِي . وَقَدْ رَأَيْتُ فِي طَرِيقِي كَثِيراً مِنَ ٱلْعَجَائِبِ الَّتِي يَحَارُ فِيهَا ٱلْعَقْلُ . وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى بَلَغْنَا « بَغْدَادَ » وَكَانَ مَعِي مِنَ ٱلْمَاسِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَا تُقَدَّرُ قِيمَتُهُ لِنَفَاسَتِهِ .

وَلَمْ أَكَدْ أَدْخُلُ « بَغْدَادَ » حَتَّى لَقِيَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي فَرَحًا شَدِيداً ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ بَعْدَ ذَلِكَ وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلْأَسْفَارِ وَٱلْبَقَاءِ فِي « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِي .

وَلَمَّا انْتَهَى « ٱلسِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَدَعَا لَهُ وَأَخَذَهَا مِنْهُ شَاكِراً ، وَانْصَرَفَ هُوَ وَجَمِيعُ ٱلْحَاضِرِينَ عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَيْهِ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي ، وَلَمَّا حَضَرُوا فِي ٱلْغَدِ بَدَأَ « ٱلسِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ فِي رِحْلَتِهِ الثَّالِثَةِ فَقَالَ :

الرحلة الثالثة

في بلاد الأقزام والعمالقة

١ - هُبُوبُ ٱلْعَاصِفَةِ

بَعْدَ أَنْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتِي الثَّانِيَةِ أَقَمْتُ بِبَغْدَادَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ هَادِئَ ٱلْبَالِ مُسْتَرِيحَ ٱلْقَلْبِ لَا يُعَكِّرُ صَفْوِي أَيُّ كَدَرٍ، وَلَكِنَّ نَفْسِي سَئِمَتْ حَيَاةَ ٱلْكَسَلِ وَالرَّاحَةِ وَاشْتَاقَتْ إِلَى السَّفَرِ وَمَا فِيهِ مِنْ رِبْحٍ وَفِيرٍ، فَاشْتَرَيْتُ كَثِيراً مِنَ ٱلْبَضَائِعِ وَسَافَرْتُ بِهَا مِنْ « بَغْدَادَ » إِلَى « ٱلْبَصْرَةِ » حَيْثُ ٱكْتَرَيْتُ أَنَا وَبَعْضُ التُّجَّارِ مَرْكَباً كَبِيراً أَقْلَعَ بِنَا وَسَارَ فِي عُرْضِ ٱلْبَحْرِ، وَلَمْ نَزَلْ نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ وَنَحْنُ نَبِيعُ وَنَشْتَرِي وَنَرْبَحُ أَرْبَاحاً طَائِلَةً حَتَّى هَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَظَلَّتِ ٱلْأَمْوَاجُ تَتَقَاذَفُ ٱلْمَرْكَبَ وَيُهَدِّدُنَا ٱلْغَرَقُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ حَتَّى ضَلَلْنَا الطَّرِيقَ وَمَكَثْنَا عِدَّةَ أَيَّامٍ تَائِهِينَ فِي ٱلْبَحْرِ لَا يَقَرُّ لَنَا قَرَارٌ حَتَّى لَاحَتْ لَنَا جَزِيرَةٌ كَبِيرَةٌ، فَلَمْ يَكَدْ يَرَاهَا الرُّبَّانُ حَتَّى لَطَمَ وَجْهَهُ بِيَدَيْهِ وَأَلْقَى بِعِمَامَتِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَصَاحَ خَائِفاً مَذْعُوراً:

« لَقَدْ هَلَكْنَا وَضَاعَ كُلُّ أَمَلٍ فِي نَجَاتِنَا »

٢ - مَعَ ٱلْأَقْزَامِ

فَسَأَلْنَاهُ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ فَقَالَ : « إِنَّ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةَ وَمَا يُجَاوِرُهَا مِنَ ٱلْجَزَائِرِ يَقْطُنُهَا قَوْمٌ مِنَ ٱلْأَقْزَامِ ٱلْمُتَوَحِّشِينَ وَهُمْ - عَلَى قِصَرِ قَامَاتِهِمْ - كَثِيرُو ٱلْعَدَدِ ، وَلَيْسَ فِي ٱسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نُقَاوِمَهُمْ » .

وَلَمْ يَكَدْ يَنْتَهِي ٱلرُّبَّانُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى خَاضَ إِلَيْنَا ٱلْمَاءَ أُولَئِكَ ٱلْهَمَجُ ٱلْمُتَوَحِّشُونَ وَأَحَاطُوا بِنَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، وَكَانَ طُولُ كُلٍّ مِنْهُمْ لَا يَزِيدُ عَلَى قَدَمَيْنِ ، وَعَلَى جُسُومِهِمْ فِرَاءٌ حُمْرُ ٱلْأَلْوَانِ وَتَحَدَّثُوا بِكَلَامٍ لَا نَفْهَمُهُ ، ثُمَّ قَادُوا السَّفِينَةَ مُسْرِعِينَ إِلَى شَاطِئِ ٱلْجَزِيرَةِ فَلَمْ نَسْتَطِعِ الدِّفَاعَ عَنْ أَنْفُسِنَا لِكَثْرَةِ عَدَدِهِمْ ، وَاسْتَسْلَمْنَا عَاجِزِينَ عَنْ كُلِّ مُقَاوَمَةٍ .

ثُمَّ أَنْزَلُونَا مِنَ ٱلْمَرْكَبِ عَلَى شَاطِئِ ٱلْجَزِيرَةِ وَأَقْلَعُوا بِهِ إِلَى مَكَانٍ نَجْهَلُهُ وَتَرَكُونَا حَيَارَى لَا نَدْرِي كَيْفَ نَعْمَلُ .

فَسِرْنَا فِي ٱلْجَزِيرَةِ كَاسِفِي ٱلْبَالِ لَا أَمَلَ لَنَا فِي النَّجَاةِ وَٱلْخَلَاصِ مِنْ هَذَا ٱلْأَسْرِ .

٣ - قَصْرُ ٱلْعِمْلَاقِ

وَلَاحَ لَنَا قَصْرٌ كَبِيرٌ - عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ - فَقَصَدْنَا إِلَيْهِ ، حَتَّى بَلَغْنَاهُ ، فَوَجَدْنَاهُ قَلْعَةً شَاهِقَةً مُحْكَمَةَ ٱلْبِنَاءِ ،

فَتَعَاوَنَّا جَمِيعاً عَلَى فَتْحِ بَابِهِ ٱلْكَبِيرِ، ثُمَّ دَخَلْنَا فِنَاءَهُ، فَوَجَدْنَا فِيهِ كَوْمَةً مِنَ ٱلْعِظَامِ ٱلْبَشَرِيَّةِ، فَهَالَنَا ذَلِكَ ٱلْمَنْظَرُ وَٱمْتَلأَتْ قُلُوبُنَا مِنْهُ رُعْباً. وَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنَّا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ — لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنَا مِنَ ٱلذُّعْرِ — وَبَقِينَا خَائِفِينَ طُولَ ٱلنَّهَارِ حَتَّى إِذَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ، سَمِعْنَا صَرِيرَ ٱلْبَابِ ٱلْخَارِجِيِّ وَهُوَ يُقْفَلُ، وَرَأَيْنَا عِمْلاَقاً هَائِلاً يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَهُوَ — فِي مِثْلِ طُولِ ٱلنَّخْلَةِ — أَسْوَدُ ٱلْوَجْهِ، لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ يَكَادُ يَتَطَايَرُ مِنْهَا الشَّرَرُ، وَأَنْيَابٌ طَوِيلَةٌ حَادَّةٌ مُرَوِّعَةٌ!

٤ — فِي حَضْرَةِ ٱلْعِمْلاَقِ

وَلَمْ نَكَدْ نَرَاهُ حَتَّى تَمَلَّكَنَا ٱلرُّعْبُ وَٱسْتَوْلَى عَلَيْنَا ٱلْهَلَعُ وَٱلْفَزَعُ وَصِرْنَا كَالْمَوْتَى وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْنَا نَظَرَاتٍ مُخِيفَةً، ثُمَّ ٱقْتَرَبَ مِنِّي وَأَمْسَكَ بِي — وَأَنَا كَالْعُصْفُورِ فِي يَدِهِ — فَرَآنِي نَحِيفاً



هَزِيلَ ٱلْجِسْمِ، فَتَرَكَنِي، وَأَخَذَ غَيْرِي فَرَآهُ نَحِيفاً فَلَمْ يُعْجِبْهُ أَيْضاً.

٥ - كَيْفَ شَوَى ٱلرُّبَّانَ

وَنَظَرَ ٱلْعِمْلاَقُ إِلَى ٱلرُّبَّانِ فَرَآهُ سَمِيناً فَأَعْجَبَهُ، وَأَمْسَكَ بِهِ وَلَوَى رَقَبَتَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ جَاءَ بِسَفُّودٍ طَوِيلٍ فَأَنْفَذَهُ فِيهِ، وَأَوْقَدَ نَاراً



حَامِيَةً وَوَضَعَهُ عَلَيْهَا ، وَمَا زَالَ يُقَلِّبُهُ حَتَّى شَوَاهُ فَأَكَلَ لَحْمَهُ وَرَمَى عِظَامَهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ ، ثُمَّ نَامَ فَسَمِعْنَا لَهُ شَخِيراً عَالِياً .

٦ — فِي ٱلْيَوْمِ التَّالِي

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ خَرَجَ ٱلْعِمْلَاقُ مِنَ ٱلْقَصْرِ وَتَرَكَنَا ، فَخَرَجْنَا إِلَى ٱلْجَزِيرَةِ يَائِسِينَ ، وَتَمَنَّيْنَا لَوْ كُنَّا غَرِقْنَا فِي ٱلْبَحْرِ وَلَمْ نَقَعْ فِي قَبْضَةِ هٰذَا ٱلْغُولِ ٱلْمُخِيفِ ، حَتَّى لَا يَكُونَ نَصِيبَنَا هٰذِهِ ٱلْمَوْتَةُ الشَّنْعَاءُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لِتَخْطُرَ لَنَا عَلَى بَالٍ .

وَبَحَثْنَا طُولَ النَّهَارِ عَنْ مَكَانٍ نَخْتَبِئُ فِيهِ فَلَمْ نَظْفَرْ بِطَائِلٍ ، فَعُدْنَا إِلَى ٱلْقَصْرِ خَائِفِينَ ، وَجَاءَ ٱلْعِمْلَاقُ بَعْدَ قَلِيلٍ فَشَوَى أَحَدَنَا — كَمَا شَوَى بِالْأَمْسِ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَأَكَلَهُ وَنَامَ إِلَى الصَّبَاحِ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حَيْثُ لَا نَدْرِي ، وَخَرَجْنَا هَائِمِينَ فِي ٱلْجَزِيرَةِ ، وَقَدْ أَشَارَ عَلَيْنَا بَعْضُ رِفَاقِنَا أَنْ نُلْقِيَ بِأَنْفُسِنَا فِي ٱلْبَحْرِ حَتَّى نَنْجُوَ مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْمَوْتَةِ ٱلْمُرَوِّعَةِ . وَأَشَارَ آخَرُونَ أَنْ نَحْتَالَ لِقَتْلِ ٱلْعِمْلَاقِ .

٧ — فُلْكُ ٱلنَّجَاةِ

فَأَشَرْتُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُهَيِّئُوا فُلْكًا مِنْ خَشَبِ ٱلْأَشْجَارِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ نَنْجَحْ فِي قَتْلِ ٱلْعِمْلَاقِ هَرَبْنَا مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ فِي تِلْكَ ٱلْفُلْكِ ، فَفَرِحُوا جَمِيعًا بِهَذَا الرَّأْيِ ، وَشَرَعْنَا فِي ٱلْعَمَلِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ حَتَّى إِذَا تَمَّتِ ٱلْفُلْكُ وَضَعْنَا فِيهَا مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ وَرَبَطْنَاهَا إِلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ .

٨ — تَنْفِيذُ ٱلْمُؤَامَرَةِ

وَعُدْنَا إِلَى ٱلْقَصْرِ ، فَجَاءَ ٱلْعِمْلَاقُ فَفَعَلَ بِثَالِثٍ مِنَّا مَا فَعَلَهُ بِسَابِقَيْهِ ثُمَّ نَامَ كَعَادَتِهِ وَعَلَا شَخِيرُهُ ، فَوَضَعْنَا سَفُّودَيْنِ فِي النَّارِ حَتَّى احْمَرَّا ، ثُمَّ أَدْخَلْنَاهُمَا مَعًا بِقُوَّةٍ فِي عَيْنَيْهِ — وَهُوَ نَائِمٌ — فَصَرَخَ صَرْخَةً هَائِلَةً مِنْ شِدَّةِ ٱلْأَلَمِ ، وَقَامَ هَائِجًا كَالْمَجْنُونِ يَبْحَثُ عَنَّا

بَعْدَ أَنْ عَمِيَتْ عَيْنُهُ ، فَلَمْ يَهْتَدِ إِلَى أَحَدٍ ، فَسَارَ إِلَى الْبَابِ فَفَتَحَهُ وَخَرَجَ ، فَفَرِحْنَا بِذَلِكَ وَحَسِبْنَا أَنَّنَا أَصْبَحْنَا بِمَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِ !

٩ – انْتِقَامُ الْعَمَالِقَةِ

وَلَكِنَّ فَرَحَنَا لَمْ يَطُلْ ، فَقَدْ جَاءَ إِلَيْنَا – بَعْدَ قَلِيلٍ – جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَمَالِقَةِ يُغَايِرُونَهُ فِي الشَّكْلِ وَلَا يَقِلُّونَ عَنْهُ وَحْشِيَّةً وَفَظَاظَةً ، فَهَرَبْنَا مِنْهُمْ مُسْرِعِينَ إِلَى الْفُلْكِ الَّتِي صَنَعْنَاهَا ، فَلَمَّا رَأَوْنَا فِي الْبَحْرِ ظَلُّوا يَرْجُمُونَنَا بِحِجَارَةٍ كَبِيرَةٍ فَقَتَلُوا رِفَاقِي وَلَمْ يَنْجُ مَعِي مِنْهُمْ إِلَّا اثْنَانِ .



١٠ – الْفِرَارُ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَمَالِقَةِ

وَبَعْدَ أَنْ نَجَوْنَا مِنْ شَرِّ أُولَئِكَ الْعَمَالِقَةِ أَصْبَحْنَا تَحْتَ رَحْمَةِ الْأَمْوَاجِ الْهَائِجَةِ – طُولَ نَهَارِنَا وَلَيْلَتِنَا – حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ قَذَفَتْنَا الْأَمْوَاجُ إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ ، فَفَرِحْنَا بِذَلِكَ وَأَكَلْنَا

مِنْ فَاكِهَتِهَا الطَّيِّبَةِ وَشَرِبْنَا مِنْ مَائِهَا الْعَذْبِ ، ثُمَّ جَلَسْنَا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَرِحِينَ بِالنَّجَاةِ مِنْ أَرْضِ الْعَمَالِقَةِ .

١١ – فِي فَمِ أَفْعَى

وَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ نِمْنَا فَوْقَ شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ وَاسْتَيْقَظْنَا فَزِعِينَ فَرَأَيْنَا حَيَّةً هَائِلَةً قَدِ الْتَقَمَتْ وَاحِداً مِنْ رَفِيقَيَّ ، فَسَمِعْنَا عِظَامَهُ تَتَكَسَّرُ فِي جَوْفِهَا وَهِيَ تَبْتَلِعُهُ فَاشْتَدَّ خَوْفُنَا وَهَالَنَا الْأَمْرُ وَقُلْنَا :



« لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، كُلَّمَا نَجَوْنَا مِنْ مُصِيبَةٍ وَقَعْنَا فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا » .

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ أَكَلْنَا وَشَرِبْنَا حَتَّى إِذَا جَاءَ اللَّيْلُ صَعِدْنَا إِلَى شَجَرَةٍ أُخْرَى فَنِمْتُ بِأَعْلَاهَا وَنَامَ رَفِيقِي قَرِيباً مِنِّي ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتِ الْحَيَّةُ فَالْتَقَمَتْ رَفِيقِي كَمَا الْتَقَمَتْ صَاحِبَهُ بِالْأَمْسِ !

١٢ – كَيْفَ نَجَا السِّنْدِبَادُ مِنَ الْأَفْعَى

فَمَكَثْتُ طُولَ اللَّيْلِ خَائِفاً حَتَّى إِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ هَمَمْتُ أَنْ أُلْقِيَ بِنَفْسِي فِي الْبَحْرِ فَمَنَعَنِي مِنْ ذَلِكَ حُبُّ الْحَيَاةِ فَتَجَلَّدْتُ ،

وَلَمَّا اُقْتَرَبَ اُللَّيْلُ أَحْضَرْتُ أَلْوَاحاً مِنَ اُلْخَشَبِ وَشَدَدْتُ جِسْمِي إِلَيْهَا شَدًّا وَثِيقاً، وَجَاءَتِ اُلْحَيَّةُ — كَعَادَتِهَا — تُحَاوِلُ أَنْ تَبْتَلِعَنِي كَمَا اُبْتَلَعَتْ رَفِيقِيَ، فَحَالَتِ اُلْأَلْوَاحُ اُلْمَشْدُودَةُ حَوْلِي دُونَ ذَلِكَ، وَظَلَّتِ اُلْحَيَّةُ طُولَ اُللَّيْلِ تُحَاوِلُ أَنْ تَجِدَ مَنْفَذًا إِلَيَّ — مِنْ خِلَالِ اُلْأَلْوَاحِ — دُونَ أَنْ تَظْفَرَ بِطَائِلٍ، فَلَمَّا بَدَا اُلصَّبَاحُ عَادَتْ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ فَحَلَلْتُ اُلرِّبَاطَ وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْنِ اُلْخُشُبِ وَأَنَا أَحْمَدُ اُللهَ عَلَى اُلسَّلَامَةِ .

١٣ — اُلْأَمَلُ بَعْدَ اُلْيَأْسِ

وَجَلَسْتُ عَلَى شَاطِىءِ اُلْبَحْرِ يَائِسًا مَهْمُوماً أُفَكِّرُ فِيمَا حَلَّ بِي مِنَ اُلْمَصَائِبِ، فَلَمَحْتُ مَرْكَباً كَبِيراً عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَصْرُخُ وَأَصِيحُ — مُشِيراً بِيَدِي مَرَّةً وَمُلَوِّحاً بِعِمَامَتِي مَرَّةً أُخْرَى — حَتَّى فَطِنَ إِلَيَّ بَعْضُ مَنْ بِالْمَرْكَبِ، فَاقْتَرَبُوا مِنَ اُلْجَزِيرَةِ وَرَسَوْا عَلَى شَاطِئِهَا، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَرَدُّوا عَلَيَّ السَّلَامَ، وَفَرِحْتُ بِلِقَائِهِمْ فَرَحًا عَظِيماً، ثُمَّ حَمَلُونِي مَعَهُمْ وَسَأَلُونِي عَنْ أَمْرِي فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي، فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ اُلْعَجَبِ وَأَطْعَمُونِي وَسَقَوْنِي وَأَكْرَمُونِي أَحْسَنَ إِكْرَامٍ .

١٤ — رُبَّانُ السَّفِينَة

وَلَمْ يَزَلِ الْمَرْكَبُ سَائِرًا بِنَا حَتَّى بَلَغْنَا بَلَدًا كَبِيرًا، فَقَالَ لِي الرُّبَّانُ: « إِنَّ عِنْدِي بِضَاعَةً لِرَجُلٍ اسْمُهُ « السِّنْدِبَادُ الْبَحْرِيُّ » كَانَ مَعَنَا ثُمَّ نَسِينَاهُ فِي جَزِيرَةٍ مَرَرْنَا بِهَا »

فَتَأَمَّلْتُ الرُّبَّانَ فَعَرَفْتُهُ وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنَا « السِّنْدِبَادُ الْبَحْرِيُّ » فَلَمْ يُصَدِّقْنِي أَوَّلَ الْأَمْرِ ، وَاجْتَمَعَ التُّجَّارُ حَوْلِي وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِم التَّاجِرُ الَّذِي تَعَلَّقْتُ بِذَبِيحَتِهِ — فِي رِحْلَتِي السَّابِقَةِ الَّتِي قَصَصْتُهَا عَلَيْكُمْ — فَلَمْ يَكَدْ يُنْعِمُ النَّظَرَ فِيَّ حَتَّى عَرَفَنِي وَقَصَّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لِي مَعَهُ ، فَحَدَّقَ الرُّبَّانُ نَظَرَهُ فِيَّ فَعَرَفَنِي وَتَحَقَّقَ صِدْقَ قَوْلِي ، فَعَانَقَنِي فَرِحًا مَسْرُورًا .

١٥ — فِي بَغْـــدَادَ

وَمَا زِلْنَا نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى جَزِيرَةٍ — وَتِجَارَتُنَا رَابِحَةٌ — حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى « الْبَصْرَةِ » ثُمَّ سَافَرْتُ مِنْهَا إِلَى « بَغْدَادَ » وَمَعِي أَمْوَالٌ لَا تُحْصَى ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ أَهْلِي وَأَصْحَابِي يُهَنِّئُونَنِي بِرُجُوعِي سَالِمًا وَقَدْ فَرِحُوا بِي فَرَحًا لَا يُوصَفُ .

وَلَمَّا انْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَدَعَا لَهُ وَخَرَجَ مَعَ الْحَاضِرِينَ ، وَلَمَّا حَضَرُوا فِي الْيَوْمِ التَّالِي بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ الرَّابِعَةَ فَقَالَ .

بين جماجم الموتى

١ – كَيْفَ تَحَطَّمَ ٱلْمَرْكَبُ

بَقِيتُ فِى «بَغْدَادَ» هَادِئَ ٱلْبَالِ مُنْغَمِسًا فِى ٱللَّهْوِ وَٱلتَّرَفِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ نَسِيتُ فِيهَا مَا قَاسَيْتُهُ مِنَ ٱلشَّدَائِدِ فِى أَسْفَارِى ٱلسَّابِقَةِ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسِى لِلسَّفَرِ – مَرَّةً أُخْرَى – طَمَعًا فِيمَا يَجُرُّهُ مِنَ ٱلْكَسْبِ.

* * *

فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِى إِمْضَاءِ هَذِهِ ٱلْعَزِيمَةِ، وَٱشْتَرَيْتُ بِضَاعَةً وَحُمُولاً كَثِيرَةً، وَسَافَرْتُ مِنْ مَدِينَةِ «بَغْدَادَ» إِلَى مَدِينَةِ «ٱلْبَصْرَةِ» حَيْثُ ٱسْتَأْجَرْتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلتُّجَّارِ مَرْكَبًا شِرَاعِيًّا كَبِيرًا سَارَ بِنَا أَيَّامًا وَلَيَالِىَ، وَكَانَتِ ٱلرِّيحُ طَيِّبَةً، وَٱلْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ، وَلَمْ نَزَلْ نَتَّجِرُ وَنَبِيعُ وَنَشْتَرِى فِى كُلِّ مَكَانٍ حَلَلْنَا بِهِ حَتَّى هَبَّتْ عَلَيْنَا عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ حَطَّمَتِ ٱلْمَرْكَبَ وَمَزَّقَتْ شِرَاعَهُ تَمْزِيقًا.

فَغَرِقَ كُلُّ مَا مَعَنَا مِنَ ٱلْبَضَائِعِ كَمَا غَرِقَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمُسَافِرِينَ، وَبَقِيتُ أَنَا وَجَمَاعَةٌ قَلِيلَةٌ مِنَ ٱلتُّجَّارِ سَابِحِينَ فِى ٱلْبَحْرِ نِصْفَ نَهَارٍ،

ثُمَّ ظَفِرْنَا بِلَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ فَرَكِبْنَاهُ ، وَلَمْ يَزَلْ سَائِراً بِنَا بَعْدَ أَنْ



هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ وَطَابَتِ الرِّيحُ يَوْماً وَلَيْلَةً ، ثُمَّ قَذَفَتْنَا الْأَمْوَاجُ
إِلَى شَاطِئِ جَزِيرَةٍ وَنَحْنُ كَالْمَوْتَى مِمَّا كَابَدْنَاهُ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ .

٣ — جزيرةُ ٱلْغِيلانِ

وَمَشَيْنَا فِي الْجَزِيرَةِ فَوَجَدْنَا كَثِيراً مِنَ النَّبَاتِ وَالْفَاكِهَةِ وَالْعُشْبِ وَالْمَاءِ ، فَأَكَلْنَا وَشَرِبْنَا ثُمَّ نِمْنَا طُولَ اللَّيْلِ ، حَتَّى إِذَا طَلَعَ النَّهَارُ اسْتَأْنَفْنَا السَّيْرَ فِي الْجَزِيرَةِ فَلَاحَ لَنَا قَصْرٌ عَالٍ فَقَصَدْنَا إِلَيْهِ ، وَلَمَّا بَلَغْنَاهُ خَرَجَ عَلَيْنَا نَفَرٌ مِنَ الْمُتَوَحِّشِينَ وَهُمْ حُفَاةُ الْأَقْدَامِ عُرَاةُ الْأَجْسَامِ وَمَا كَادُوا يُبْصِرُونَنَا حَتَّى قَبَضُوا عَلَيْنَا ، وَسَارُوا بِنَا إِلَى مَلِكِهِمْ فَأَمَرَنَا بِالْجُلُوسِ فَأَطَعْنَا ، ثُمَّ أَحْضَرَ طَعَامًا فَأَكَلَ مِنْهُ أَصْحَابِي وَعَافَتْهُ نَفْسِي فَلَمْ آكُلْ مِنْهُ شَيْئاً — وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي — فَإِنَّ أَصْحَابِي لَمْ يَنْتَهُوا مِنْ أَكْلَتِهِمْ هَذِهِ حَتَّى ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ أَمَارَاتُ الْخَبَلِ وَالْجُنُونِ ، فَأَسِفْتُ لِذَلِكَ أَشَدَّ الْأَسَفِ وَأَدْرَكْتُ أَنَّ مَا أَكَلُوهُ مِنَ الطَّعَامِ هُوَ سَبَبُ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الذُّهُولِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَةَ الْغِيلَانِ مَعَ كُلِّ مَنْ يَرْمِيهِمْ سُوءُ الْحَظِّ وَنَكَدُ الطَّالِعِ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، إِذْ يُقَدِّمُونَ إِلَيْهِمْ هَذَا الطَّعَامَ الْعَجِيبَ فَيُقْبِلُونَ عَلَيْهِ بِشَرَهٍ وَيُصِيبُهُمُ الذُّهُولُ ، وَلَا يَزَالُونَ يَأْكُلُونَ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ حَتَّى يَسْمَنُوا فَيَأْكُلَهُمُ الْغِيلَانُ ، وَلَمَّا تَكَشَّفَتْ لِي هَذِهِ الْحَقِيقَةُ فَزِعْتُ فَزَعاً شَدِيداً وَامْتَنَعْتُ عَنْ أَكْلِ طَعَامِهِمْ مُكْتَفِيًا بِمَا كُنْتُ أَقْتَاتُهُ مِنَ الْأَعْشَابِ ، فَأَصَابَنِي هُزَالٌ شَدِيدٌ جَعَلَهُمْ

لَا يَلْتَفِتُونَ إِلَيَّ وَلَا يُعْنَوْنَ بِمُرَاقَبَتِي ، وَكَانَ يَخْرُجُ بِأَصْحَابِي -كُلَّ يَوْمٍ- وَاحِدٌ مِنْ أُولَئِكَ الْغِيلَانِ يَرْعَاهُمْ كَمَا تُرْعَى الْغَنَمُ .

٣ — هَرَبُ السِّنْدِبَادِ مِنَ الْغِيلَانِ

وَسَنَحَتْ لِي الْفُرْصَةُ — ذَاتَ يَوْمٍ — فَهَرَبْتُ مِنَ الرَّاعِي ،



وَمَا زِلْتُ اجْرِي — بِكُلِّ قُوَّتِي — حَتَّى أَقْبَلَ اللَّيْلُ ، فَنِمْتُ قَلِيلًا ثُمَّ أَصَابَنِي الْأَرَقُ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ الْخَوْفِ ، فَاسْتَأْنَفْتُ السَّيْرَ وَمَا زِلْتُ سَائِرًا سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَأَنَا آكُلُ مِمَّا أَلْقَاهُ فِي طَرِيقِي مِنَ النَّارَجِيلِ « الْجَوْزِ الْهِنْدِيِّ » — الَّذِي كَانَ غِذَائِي وَشَرَابِي مَعًا — وَكُنْتُ أَسِيرُ بِالنَّهَارِ وَأَنَامُ بِاللَّيْلِ

٤ — عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ

وَلَمَّا بَلَغْتُ شَاطِئَ ٱلْبَحْرِ رَأَيْتُ جَمَاعَةً يَجْمَعُونَ حَبَّ ٱلْفُلْفُلِ ، وَمَا كَادَ يَقَعُ بَصَرُهُمْ عَلَيَّ حَتَّى بَدَءُونِى بِالتَّحِيَّةِ وَسَأَلُونِى – بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ – : « مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ » .

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لِى مَعَ ٱلْغِيلَانِ فَهَنَّأُونِى بِالسَّلَامَةِ وَقَدَّمُوا لِى طَعَاماً شَهِيًّا فَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ .

٥ — فِى حَضْرَةِ ٱلْمَلِكِ

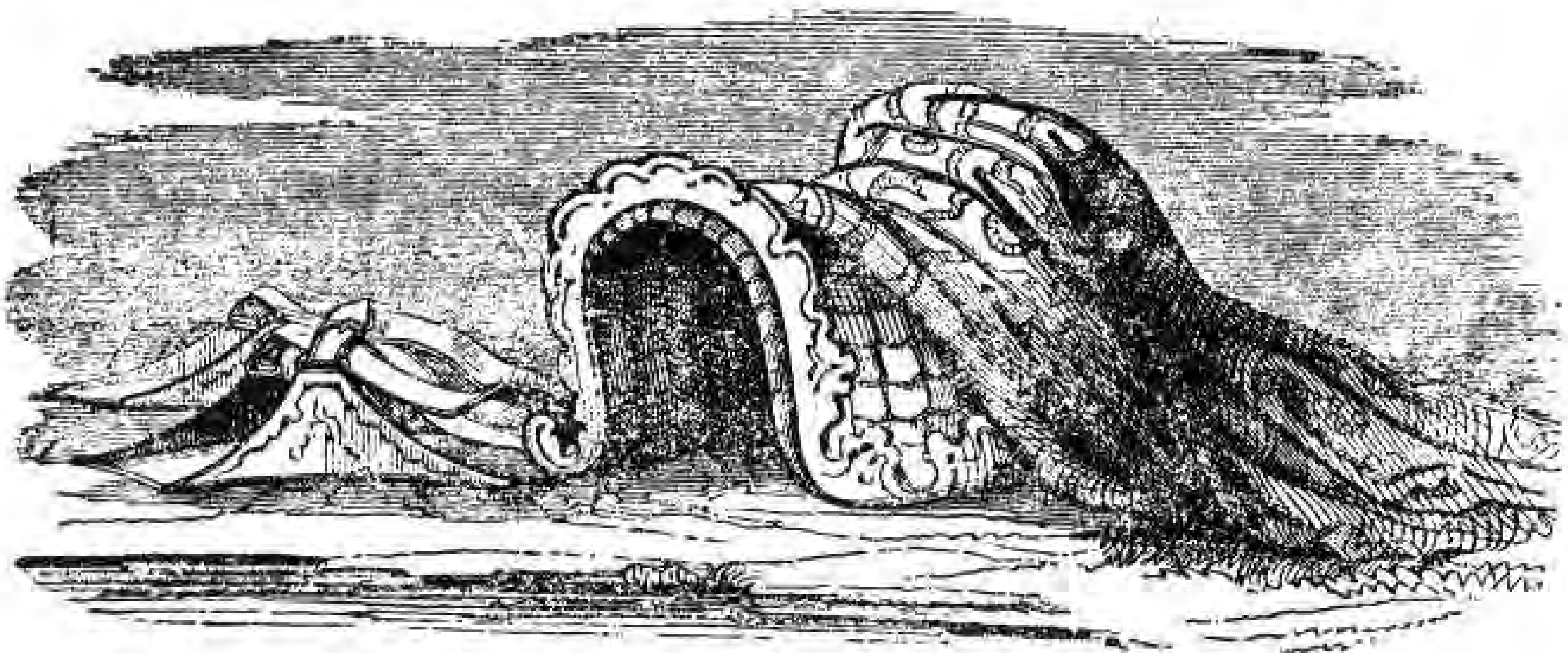
وَلَمَّا ذَهَبُوا إِلَى مَلِكِهِمْ أَخْبَرْتُهُ بِقِصَّتِى فَعَجِبَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَأَكْرَمَنِى وَآوَانِى عِنْدَهُ ، وَخَرَجْتُ – فِى ٱلْيَوْمِ التَّالِى – إِلَى ٱلْمَدِينَةِ ، فَرَأَيْتُهَا مَدِينَةً عَظِيمَةً مُزْدَحِمَةَ ٱلْأَسْوَاقِ .

٦ — سُرُوجُ ٱلْخَيْلِ

وَلَكِنَّنِى رَأَيْتُ أَهْلَهَا يَرْكَبُونَ ٱلْخَيْلَ بِلَا سَرْجٍ وَلَا لِجَامٍ – لَا فَرْقَ فِى ذَلِكَ بَيْنَ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ – فَذَهَبْتُ إِلَى ٱلْمَلِكِ وَأَبْدَيْتُ لَهُ دَهْشَتِى مِمَّا رَأَيْتُ ، فَقَالَ لِى : « إِنَّكَ تُحَدِّثُنِى عَنْ شَىْءٍ لَا أَعْرِفُهُ وَلَمْ أَرَهُ فِى حَيَاتِى قَطُّ » وَطَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أَصْنَعَ لِفَرَسِهِ سَرْجاً وَلِجَاماً فَجَمَعْتُ بَعْضَ ٱلْعُمَّالِ ٱلْأَذْكِيَاءِ ، وَرَسَمْتُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا يُلَائِمُ حِرْفَتَهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ حَتَّى تَمَّ السَّرْجُ فَحَلَّيْتُهُ بِطِرَازٍ ذَهَبِيٍّ

نَفِيسٍ ، وَأَرْشَدْتُ ٱلْحَدَّادَ إِلَى طَرِيقَةِ صُنْعِ الرِّكَابِ وَاللِّجَامِ فَلَمَّا أَتَمَّ صُنْعَهُمَا ذَهَبْتُ إِلَى ٱلْمَلِكِ — وَمَعِي سَرْجٌ وَلِجَامٌ وَرِكَابٌ — وَذَكَرْتُ لَهُ فَائِدَةَ كُلٍّ مِنْهَا فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ فَرَسِهِ فَأَسْرَجْتُهَا وَأَلْجَمْتُهَا ، ثُمَّ رَكِبَهَا ٱلْمَلِكُ فَسُرَّ مِنْ ذَلِكَ سُرُوراً عَظِيماً وَشَكَرَ لِي هَذِهِ ٱلْهَدِيَّةَ ٱلنَّفِيسَةَ ، وَكَافَأَنِي عَلَيْهَا أَحْسَنَ مُكَافَأَةٍ .

ثُمَّ طَلَبَ إِلَيَّ أَعْيَانُ ٱلدَّوْلَةِ أَنْ أَصْنَعَ لَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَجَبْتُهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، فَغَمَرُونِي بِهَدَايَاهُمُ النَّفِيسَةِ حَتَّى أَصْبَحْتُ مِنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ



٧ — زَوَاجُ السِّنْدِبَادِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ قَالَ لِي ٱلْمَلِكُ : « إِنِّي وَجَمِيعَ حَاشِيَتِي نُحِبُّكَ يَا سِنْدِبَادُ حُبًّا لا مَزِيدَ عَلَيْهِ ، وَنُرِيدُ أَنْ تَبْقَى مَعَنَا طُولَ عُمْرِكَ وَلَا بُدَّ مِنْ تَزْوِيجِكَ حَتَّى لَا تُفَارِقَنَا ، وَقَدْ تَخَيَّرْتُ لَكَ فَتَاةً جَمِيلَةً غَنِيَّةً لِتَتَزَوَّجَ مِنْهَا ، فَمَاذَا أَنْتَ قَائِلٌ ؟ »

فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ، وَرَضِيتُ بِالزَّوَاجِ مِنْ تِلْكَ الْفَتَاةِ — وَكَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ وَأَدَبٍ — فَمِشْنَا مَعاً عَلَى أَحْسَنِ حَالٍ وَأَهْدَإِ بَالٍ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ — فِي كُلِّ يَوْمٍ — أَتَرَقَّبُ الْفُرَصَ لِلسَّفَرِ إِلَى بَلَدِي فِي أَوَّلِ سَفِينَةٍ تَمُرُّ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ.

٨ — دَفْنُ الْأَحْيَاءِ مَعَ الْأَمْوَاتِ

وَحَدَثَ — فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ — مَا لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُهُ، فَقَدْ مَاتَتْ زَوْجَةُ جَارِي وَكَانَ مِنْ أَحَبِّ الْأَصْدِقَاءِ إِلَيَّ، فَلَمَّا ذَهَبْتُ أُعَزِّيهِ وَجَدْتُهُ فِي حَالٍ لَا تُوصَفُ — مِنْ شِدَّةِ الْجَزَعِ وَالْغَمِّ — فَقُلْتُ لَهُ: «تَشَجَّعْ يَا أَخِي وَلَا تَحْزَنْ».

وَدَعَوْتُ لَهُ بِطُولِ الْبَقَاءِ، فَقَالَ لِي مُتَحَسِّراً: «كَيْفَ يَطُولُ بَقَائِي وَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْهَلَاكِ إِلَّا سَاعَةٌ وَاحِدَةٌ»

فَقُلْتُ لَهُ —: «لَا بُدَّ مِنَ الصَّبْرِ، وَسَيُطِيلُ اللهُ عُمْرَكَ وَتَنْسَى مُصَابَكَ هَذَا، وَيَكُونُ آخِرَ مَكْرُوهٍ يَلْحَقُكَ!»

فَقَالَ لِي —: «أَمَّا طُولُ الْعُمْرِ فَلَيْسَ لِي فِيهِ مَطْمَعٌ، لِأَنَّنِي سَأُدْفَنُ مَعَ زَوْجَتِي حَيًّا — بَعْدَ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ — وَقَدْ وَدَّعْتُ أَهْلِي وَأَصْدِقَائِي جَمِيعًا!»

فَدَهِشْتُ مِنْ قَوْلِهِ أَشَدَّ دَهْشَةٍ، وَسَأَلْتُهُ مُتَعَجِّباً:

« وَكَيْفَ تُدْفَنُ مَعَ زَوْجَتِكَ وَأَنْتَ حَيٌّ ؟ » ، فَقَالَ لِي :

« إِنَّ شَرِيعَةَ بِلَادِنَا تُحَتِّمُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ تَمُوتُ زَوْجَتُهُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَهَا حَيًّا ، وَعَلَى كُلِّ امْرَأَةٍ يَمُوتُ زَوْجُهَا أَنْ تُدْفَنَ مَعَهُ كَذَلِكَ ؟ »

فَزَادَتْ دَهْشَتِي ، وَسَأَلْتُهُ :

« أَلَيْسَ فِي قُدْرَةِ أَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ القَاسِيَةَ ؟ »

فَأَجَابَنِي يَائِسًا — : « ذَلِكَ مُحَالٌ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَانُونَ يَسْرِي عَلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ كُلِّهِمْ ، مِنَ الْمَلِكِ إِلَى أَصْغَرِ فَرْدٍ فِي الرَّعِيَّةِ . »

وَلَمْ يَكَدْ يَفْرُغُ مِنْ كَلَامِهِ حَتَّى اجْتَمَعَ حَوْلَهُ أَهْلُهُ وَعَارِفُوهُ ، فَوَضَعُوا زَوْجَتَهُ فِي النَّعْشِ وَوَضَعُوا مَعَهَا كُلَّ حُلَاهَا ، وَسَارُوا بِهِمَا إِلَى جُبٍّ بَعِيدٍ عَنِ الْمَدِينَةِ ، وَكَشَفُوا غِطَاءَهُ — وَهُوَ صَخْرَةٌ كَبِيرَةٌ — وَأَلْقَوْا بِالزَّوْجَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَبَطُوا زَوْجَهَا بِحِبَالٍ طَوِيلَةٍ وَوَدَّعُوهُ ، وَوَضَعُوا — إِلَى جَانِبِهِ — قُلَّةَ مَاءٍ وَسَبْعَةَ أَرْغِفَةٍ ، وَلَمَّا أَنْزَلُوهُ فِي الْجُبِّ أَعَادُوا غِطَاءَهُ وَرَجَعُوا مِنْ حَيْثُ أَتَوْا ؟

٩ — الشَّكْوَى إِلَى الْمَلِكِ

وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَصِفَ لَكُمْ مَا لَحِقَنِي مِنَ الْجَزَعِ وَالْخَوْفِ مِمَّا رَأَيْتُ ، وَلَقَدْ أَسْرَعْتُ بِالذَّهَابِ إِلَى مَلِكِ الْجَزِيرَةِ فَشَكَوْتُ لَهُ هَذِهِ الْعَادَةَ السَّيِّئَةَ الَّتِي لَمْ أَرَهَا فِي غَيْرِ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا :

« هَذِهِ هِيَ شَرِيعَةُ بِلَادِنَا ، وَهِيَ سَارِيَةٌ عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ رَعِيَّتِي فَإِذَا مَاتَتِ ٱلْمَلِكَةُ قَبْلِي دُفِنْتُ مَعَهَا ، وَإِذَا مِتُّ قَبْلَهَا دُفِنَتْ مَعِي ؟ »

فَزَادَ عَجَبِي مِنْ ذَلِكَ وَقُلْتُ لَهُ — : « وَهَلْ يَسْرِي هَذَا ٱلْقَانُونُ ٱلْقَاسِي عَلَى ٱلْغُرَبَاءِ أَيْضًا ؟ » فَأَجَابَنِي — : « نَعَمْ ، فَهُوَ يَسْرِي عَلَى كُلِّ مَنْ تَزَوَّجَ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ أَيًّا كَانَ جِنْسُهُ ! »

فَرَجَعْتُ مِنْ عِنْدِهِ مَهْمُومًا ، وَصِرْتُ أَجْزَعُ كُلَّمَا لَحِقَ زَوْجَتِي أَقَلُّ أَذًى ، وَأَخْشَى عَلَيْهَا كُلَّمَا مَرِضَتْ ، وَكُنْتُ إِذَا جُرِحَتْ إِصْبَعُهَا بِتُّ طُولَ ٱللَّيْلِ سَاهِرًا خَشْيَةَ أَنْ تَمُوتَ .

١٠ — وَفَاةُ زَوْجَةِ السِّنْدِبَادِ

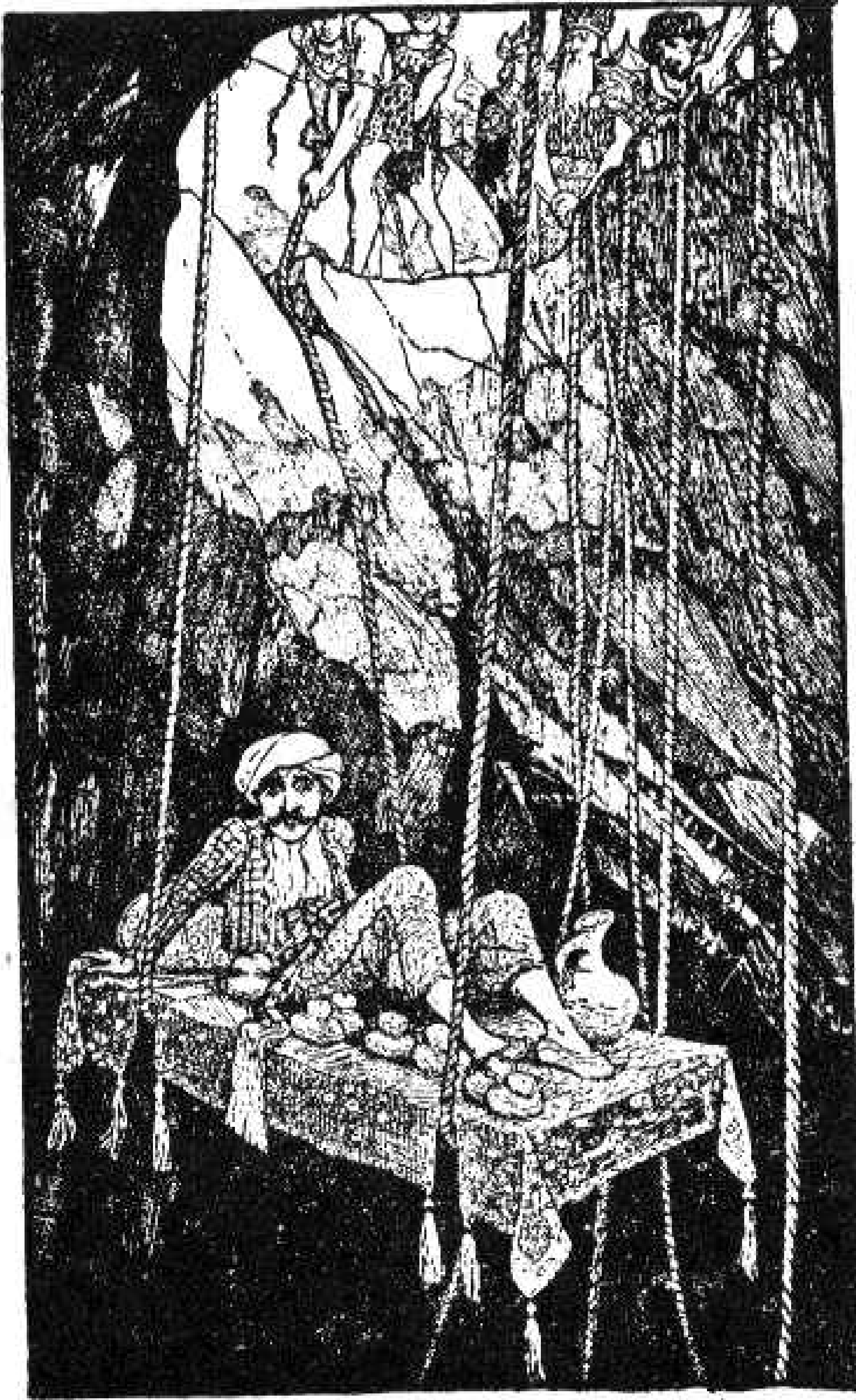
وَكَانَ مَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَ ، فَلَمْ يَمْضِ عَلَى زَوْجَتِي زَمَنٌ يَسِيرٌ حَتَّى مَرِضَتْ ثُمَّ مَاتَتْ ، فَوَقَعَ عَلَيَّ هَذَا ٱلْحَادِثُ وُقُوعَ ٱلصَّاعِقَةِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ كُلَّ مَوْتَةٍ تَعَرَّضْتُ لَهَا وَنَجَوْتُ مِنْهَا فِي رِحْلَاتِي ٱلسَّابِقَةِ كَانَتْ أَهْوَنَ عَلَى نَفْسِي مِنْ أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا .

وَجَاءُوا فَكَفَّنُوا زَوْجَتِي فِي أَبْهَى أَثْوَابِهَا وَوَضَعُوا مَعَهَا كُلَّ حُلِيِّهَا ، وَسِرْتُ خَلْفَهَا وَمَعِي كِبَارُ ٱلدَّوْلَةِ وَأَعْيَانُ ٱلْمَدِينَةِ يَتَقَدَّمُهُمُ ٱلْمَلِكُ نَفْسُهُ حَتَّى بَلَغْنَا ذَلِكَ ٱلْجُبَّ ٱلْمَشْئُومَ ، فَكَشَفُوا غِطَاءَهُ

وَأَنْزَلُوا زَوْجَتِي فِيهِ، وَأَقْبَلَ عَلَيَّ ٱلْمَلِكُ وَٱلْأَعْيَانُ يُوَدِّعُونَنِي، فَصَرَخْتُ بَاكِيًا مِنْ هَوْلِ مَا أَنَا قَادِمٌ عَلَيْهِ، وَتَوَسَّلْتُ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا — طَمَعًا فِي أَنْ يُطْلِقُوا سَرَاحِي — فَلَمْ يُصْغِ أَحَدٌ إِلَى كَلَامِي.

١١ — بَيْنَ جَمَاجِمِ ٱلْمَوْتَى

ثُمَّ أَنْزَلُونِي إِلَى ٱلْجُبِّ قَسْرًا وَأَنْزَلُوا مَعِي قُلَّةَ مَاءٍ وَسَبْعَةَ أَرْغِفَةٍ، وَأَعَادُوا غِطَاءَ ٱلْجُبِّ ثَانِيَةً وَٱنْصَرَفُوا.



وَبَقِيتُ وَحْدِي فِي ظُلْمَةِ هَذَا ٱلْجُبِّ - بَيْنَ جَمَاجِمِ ٱلْمَوْتَى - مُتَرَقِّبًا سَاعَتِيَ ٱلْأَخِيرَةَ بَيْنَ يَوْمٍ وَآخَرَ.

***

وَلَاحَ لِي فِي تِلْكَ ٱلْحُفْرَةِ ٱلْمُظْلِمَةِ بَصِيصٌ ضَئِيلٌ مِنَ ٱلنُّورِ فَرَأَيْتُ حَوْلِي أَكْدَاسًا مِنْ عِظَامِ ٱلْمَوْتَى وَجَمَاجِمِهِمْ، فَازْدَادَ رُعْبِي وَأَخَذْتُ أَلُومُ نَفْسِي عَلَى هَذِهِ ٱلرِّحْلَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ وَنَدِمْتُ عَلَى

مَا فَعَلْتُ حَيْثُ لاَ يَنْفَعُ النَّدَمُ ، ثُمَّ رَضِيتُ بِقَضَاءِ ٱللهِ وَجَعَلْتُ أَقْتَصِدُ فِى ٱلأَكْلِ وَالشُّرْبِ حَتَّى لاَ يَنْفَدَ مَا مَعِى مِنَ الطَّعَامِ فِى زَمَنٍ قَلِيلٍ ، وَلَـكِنَّنِى — بَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ — ٱسْتَنْفَدْتُ زَادِى كُلَّهُ وَأَيْقَنْتُ حِينَئِذٍ بِالْهَلاَكِ . وَإِنِّى لَـكَذَلِكَ إِذْ كُشِفَ



غِطَاءُ ٱلْجُبِّ وَنَزَلَ فِيهِ رَجُلٌ مَيِّتٌ وَزَوْجَتُهُ — وَمَعَهَا ٱلأَرْغِفَةُ السَّبْعَةُ وَقُلَّةُ ٱلْمَاءِ — ثُمَّ أَعَادُوا غِطَاءَ ٱلْجُبِّ ثَانِيَةً ، وَمَا كَادَتِ ٱلْمَرْأَةُ تَسْتَقِرُّ فِى ٱلْجُبِّ بَعْدَ أَنْ أَعَادُوا غِطَاءَهُ ثَانِيَةً حَتَّى مَاتَتْ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلرُّعْبِ ، فَأَخَذْتُ مَا مَعَهَا مِنَ ٱلزَّادِ وَٱلْمَاءِ فَكُنْتُ آكُلُ مِنْهُ وَأَشْرَبُ مُقْتَصِداً أَيَّاماً وَلَيَالِىَ ، وَبَقِيتُ أَتَرَقَّبُ

كُلَّ مَنْ يَدْفِنُونَهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَمُوتُونَ مِنَ الرُّعْبِ فَآخُذُ زَادَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيَّ الزَّمَنُ وَسَئِمْتُ الْحَيَاةَ فِي هَـذَا الْجُبِّ الْمُظْلِمِ .

١٢ – النَّجَاةُ مِنَ الْجُبِّ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ – لِحُسْنِ حَظِّي – شَبَحًا يَدْنُو مِنِّي فَلَمْ أَسْتَطِعْ تَمْيِيزَهُ لِظُلْمَةِ الْمَكَانِ ، وَلَـكِنَّنِي أَحْسَسْتُ أَنْفَاسَهُ عَنْ قُرْبٍ فَقُمْتُ خَائِفاً مَذْعُوراً ، فَفَزِعَ مِنِّي ذَلِكَ الشَّبَحُ وَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى ، فَتَبِعْتُهُ لِأَعْرِفَ مِنْ أَيْنَ يَخْرُجُ ، فَرَأَيْتُهُ يَتَسَلَّلُ مِنْ مَنْفَذٍ صَغِيرٍ فِي آخِرِ الْحُفْرَةِ ، فَلَاحَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي النَّجَاةِ ، وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي تَوْسِيعِ هَـذَا الْمَنْفَذِ حَتَّى تَمَّ لِي ذَلِكَ ، فَخَرَجْتُ مِنْهُ ، فَرَأَيْتُنِي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحاً لَا يُوصَفُ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى الْجُبِّ فَجَمَعْتُ كُلَّ مَا قَدَرْتُ عَلَى جَمْعِهِ مِنَ الْحُلِيِّ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ الَّتِي دَفَنُوهَا مَعَ الْمَوْتَى ، وَوَضَعْتُهَا فِي أَثْوَابِهِمْ وَأَكْفَانِهِمْ ، وَبَقِيتُ أَذْهَبُ إِلَى الْجُبِّ كُلَّ يَوْمٍ فَأَحْمِلُ مِنْهُ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنْ كُنُوزٍ وَنَفَائِسَ ثُمَّ أَعُودُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ مُتَرَقِّباً قُدُومَ أَيِّ مَرْكَبٍ يَحْمِلُنِي إِلَى بَلَدِي أَوْ يُبْعِدُنِي عَنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمَشْئُومَةِ .

١٣ — مَرْكَبُ ٱلنَّجَاةِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ — بَيْنَمَا أَنَا عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ — إِذْ لَاحَ لِي مَرْكَبٌ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَمْ أَكَدْ أَرَاهُ حَتَّى نَهَضْتُ قَائِمًا وَأَخَذْتُ أُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِي وَأُشِيرُ لِمَنْ فِيهِ بِيَدِي، وَأَمْسَكْتُ



بِقِطْعَةٍ مِنَ الثِّيَابِ فَلَوَّحْتُ لَهُمْ بِهَا، حَتَّى فَطِنُوا إِلَيَّ، فَحَوَّلُوا مَرْكَبَهُمْ إِلَى ٱلشَّاطِئِ حَتَّى بَلَغُوهُ، فَبَدَأْتُهُمْ بِالسَّلَامِ فَرَدُّوا عَلَيَّ أَحْسَنَ رَدٍّ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَأْخُذُونِي مَعَهُمْ، فَلَمْ يَتَرَدَّدُوا فِي ذَلِكَ، وَسَأَلُونِي عَنْ قِصَّتِي فَخَشِيتُ أَنْ أُخْبِرَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ كُلِّهَا لِئَلَّا يَكُونَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ ٱلْجَزِيرَةِ فَتَسُوءَ ٱلْعَاقِبَةُ، وَقُلْتُ لَهُمْ: «أَنَا تَاجِرٌ وَقَدْ غَرِقَ مَرْكَبِي فَنَجَوْتُ بِهَذِهِ الثِّيَابِ عَلَى لَوْحٍ مِنَ ٱلْخَشَبِ حَمَلَنِي إِلَى هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ!»

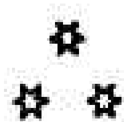
وَعَرَضْتُ عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ هَدِيَّةً نَفِيسَةً — مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى

صَنِيعِهِ – فَرَفَضَ وَقَالَ لِي : « أَنَا لاَ آخُذُ عَلَى مَعْرُوفٍ أَجْراً وَلاَ جَزَاءً » فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّ الشُّكْرِ !

١٤ – اَلْعَوْدَةُ إِلَى ٱلْوَطَنِ

وَعلِمْتُ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مُسَافِرُونَ إِلى « اُلْبَصْرَةِ » فَفَرِحْتُ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيداً ، وَلَمْ يَزَلِ اُلْمَرْكَبُ سَائِرًا بِنَا مِنْ جَزِيرَةٍ إِلى جَزِيرَةٍ وَمِنْ بَلَدٍ إِلى بَلَدٍ ، وَهُمْ يُطْعِمُونَنِي مِنْ طَعَامِهِمْ وَلاَ يَبْخَلُونَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ مِمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلى « اُلْبَصْرَةِ » فَأَقَمْتُ بِهَا أَيَّاماً قَلاَئِلَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ مِنْهَا إِلى « بَغْدَادَ »

فَفَرِحَ بِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرَحًا لاَ يُوصَفُ وَهَنَّأُونِي بِالسَّلاَمَةِ ، وَوَهَبْتُ اُلْفُقَرَاءَ كَثِيراً مِنْ مَالِي وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ اُلْأَسْفَارِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ مِنَ اُلْمَتَاعِبِ وَالشَّدَائِدِ .



وَلَمَّا اُنْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلاَمِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمائَةِ دِينارٍ فَأَخَذَهَا شَاكِراً وَاُنْصَرَفَ هُوَ وَجَمِيعُ اُلْحَاضِرِينَ .

وَلَمَّا جَاءُوا فِي اُلْغَدِ بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ مَا حَدَثَ لَهُ مِنَ اُلْعَجَائِبِ فِي رِحْلَتِهِ اُلْخَامِسَةِ فَقَالَ :

«١» شيخ البحر «٢» مدينة القرود

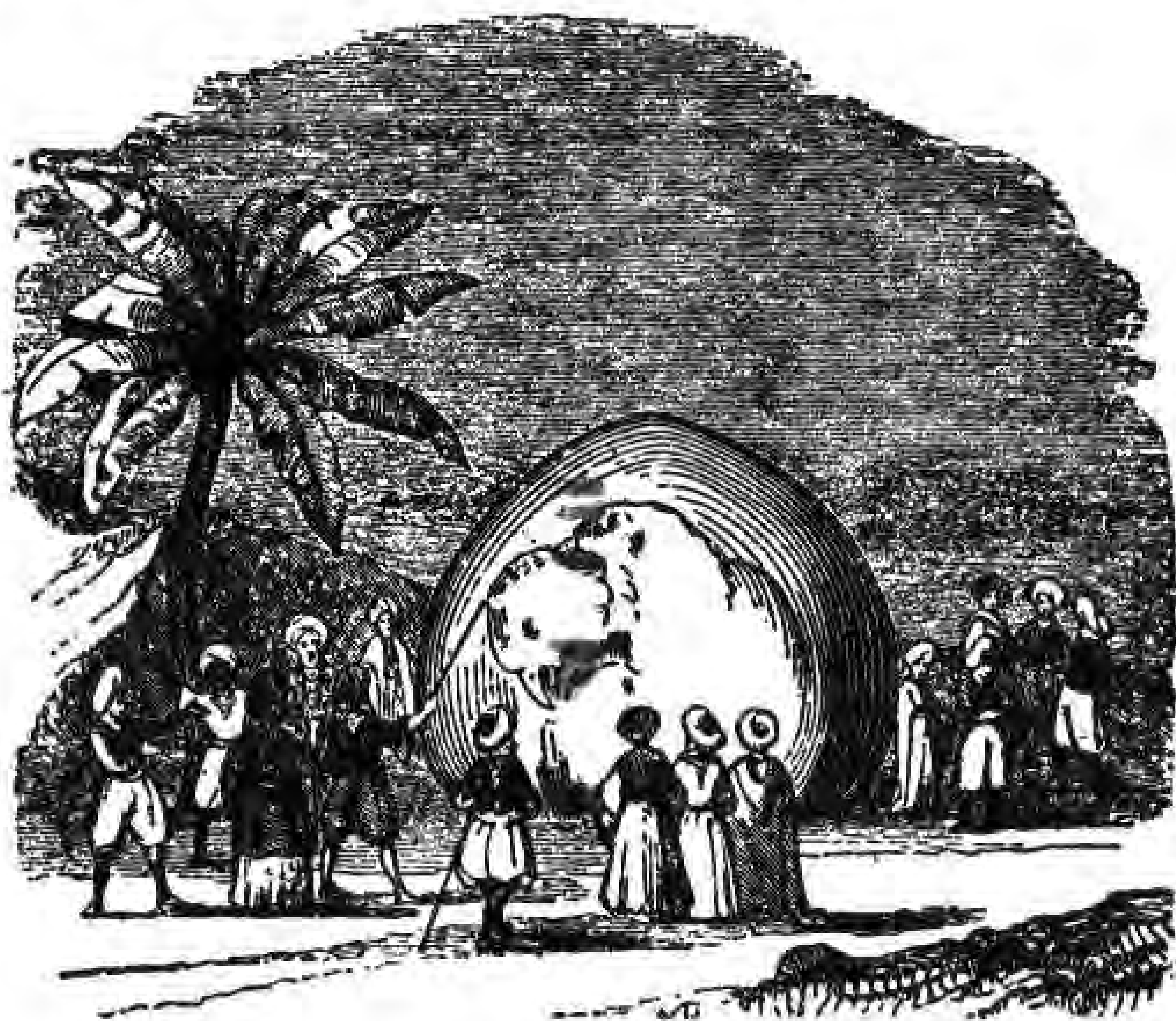
١ — جَزِيرَةُ ٱلرُّخ

لَمْ يَكْفِنِي مَا رَكِبْتُهُ مِنَ ٱلْأَخْطَارِ ، وَلَمْ يَثْنِ عَزِيمَتِي مَا لَقِيتُهُ مِنَ ٱلْمَخَاوِفِ فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ ، فَقَدْ نَسِيتُ ذَلِكَ كُلَّهُ — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ — وَرَغِبَتْ نَفْسِي فِي السَّفَرِ وَالاتِّجَارِ ، فَأَعْدَدْتُ كُلَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي رِحْلَتِي مِنْ بِضَاعَةٍ وَمَتْجَرٍ ، وَلَمْ أَسْتَأْجِرْ مَرْكَباً فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — كَمَا فَعَلْتُ فِي أَسْفَارِي السَّابِقَةِ — بَلِ اشْتَرَيْتُ مَرْكَباً جَدِيداً لِيَذْهَبَ بِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ ، وَسَافَرَ مَعِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ التُّجَّارِ .

ثُمَّ أَبْحَرَ بِنَا ٱلْمَرْكَبُ مِنْ مَدِينَةِ « الْبَصْرَةِ » وَكَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَٱلْأُمُورُ عَلَى أَحْسَنِ مَا يُرَامُ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِي ٱلْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى رَسَا ٱلْمَرْكَبُ عَلَى جَزِيرَةٍ كَبِيرَةٍ مُقْفِرَةٍ مِنَ النَّاسِ اسْمُهَا جَزِيرَةُ الرُّخِّ ، فَخَطَرَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ بِهَا لِنُرَوِّحَ عَنْ أَنْفُسِنَا مَتَاعِبَ السَّفَرِ وَلَمْ نَكَدْ نَمْشِي فِيهَا قَلِيلًا حَتَّى لَاحَتْ لَنَا بَيْضَةُ رُخٍّ كَبِيرَةٌ فِي حَجْمِ تِلْكَ الْبَيْضَةِ الَّتِي وَصَفْتُهَا لَكُمْ فِي رِحْلَتِي الثَّانِيَةِ !

٢ – فَرْخُ ٱلرُّخِّ

وَكَانَتْ عَلَى وَشْكِ أَنْ تُفْرِخَ ، فَقَدْ أَطَلَّ فَرْخُ الرُّخِّ بِمِنْقَارِهِ مِنْهَا ، وَلَمْ يَكَدْ يَرَاهُ رِفَاقِي حَتَّى انْدَفَعُوا إِلَى الْبَيْضَةِ يُكَسِّرُونَهَا



بِمَعَاوِلِهِمْ وَفُؤُسِهِمْ وَأَنَا أَنْهَاهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَأُحَذِّرُهُمْ وَخَامَةَ الْعَاقِبَةِ ، وَهُمْ لَا يُصْغُونَ إِلَى نُصْحِي وَلَا يَسْمَعُونَ لِي قَوْلًا . وَمَا زَالُوا بِهَا حَتَّى حَطَّمُوهَا تَحْطِيماً وَقَتَلُوا الْفَرْخَ وَأَخَذُوا شَيْئًا مِنْ لَحْمِهِ يَشْوُونَهُ عَلَى النَّارِ ، حَتَّى إِذَا تَمَّ لَهُمْ ذَلِكَ أَكَلُوهُ ؟

٣ – طَائِرَا ٱلرُّخِّ

وَمَا كَادُوا يَنْتَهُونَ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَكْلَةِ ٱلْمَشْئُومَةِ حَتَّى أَظْلَمَ ٱلْجَوُّ

وَحَجَبَ عَنَّا ضَوْءَ الشَّمْسِ طَائِرَانِ كَبِيرَانِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُمَا طَائِرَا الرُّخِّ ، وَأَدْرَكَ الرُّبَّانُ الْخَطَرَ الْمُحْدِقَ بِنَا فَصَاحَ : « أَسْرِعُوا إِلَى الْمَرْكَبِ قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمْ غَضَبُهُمَا وَنِقْمَتُهُمَا » فَجَرَيْنَا إِلَى الْمَرْكَبِ مُسْرِعِينَ ، وَأَرْخَيْنَا شِرَاعَهُ فَسَارَ بِنَا بِأَقْصَى سُرْعَةٍ .

٤ ــ انْتِقَامُ الرُّخِّ

وَكَانَ طَائِرَا الرُّخِّ قَدْ وَصَلَا إِلَى بَيْضِهِمَا فَرَأَيَا مَا حَلَّ بِوَلِيدِهِمَا فَصَاحَا مِنَ الْجَزَعِ ، أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ سَارَ بِنَا الْمَرْكَبُ حَتَّى غَابَا عَنْ أَبْصَارِنَا فَحَسِبْنَا أَنَّنَا قَدْ أَصْبَحْنَا بِمَأْمَنٍ مِنْ شَرِّهِمَا ، وَلَكِنَّهُمَا عَادَا إِلَيْنَا ــ بَعْدَ قَلِيلٍ ــ وَفِي مِخْلَبَيْ كُلٍّ مِنْهُمَا صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَسْرَعَتْ أُنْثَى الرُّخِّ فَأَلْقَتِ الصَّخْرَةَ الَّتِي تَحْمِلُهَا عَلَى مَرْكَبِنَا ، وَكَانَ رُبَّانُنَا ذَكِيًّا مَاهِرًا فَأَدَارَ فِي الْحَالِ سُكَّانَ الْمَرْكَبِ ، فَانْحَرَفَ عَنِ الصَّخْرَةِ فَهَوَتْ إِلَى الْبَحْرِ وَشَقَّتِ الْمَاءَ نِصْفَيْنِ كِدْنَا نُبْصِرُ مِنْ خِلَالِهِمَا قَرَارَهُ .

٥ ــ تَحْطِيمُ الْمَرْكَبِ

وَلَمْ نَكَدْ نَفْرَحُ بِزَوَالِ هَذَا الْخَطَرِ عَنَّا ، حَتَّى أَلْقَى طَيْرُ الرُّخِّ صَخْرَتَهُ عَلَى مَرْكَبِنَا ، فَأَصَابَتْ جَانِبَهُ وَهَشَّمَتْهُ تَهْشِيمًا ، فَهَوَى الْمَرْكَبُ إِلَى جَوْفِ الْبَحْرِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالنَّاسِ وَكِدْتُ أَغْرَقُ

فِيمَنْ غرِقَ لَوْلَا أَنِّي وَجَدْتُ لَوْحًا مِنَ ٱلْخَشَبِ قَرِيبًا مِنِّي ، فَتَعَلَّقْتُ بِهِ لِلْحَالِ .

٦ – جَزِيرَةُ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ

وَمَا زَالَ ٱللَّوْحُ سَائِرًا بِي فِي عُرْضِ ٱلْبَحْرِ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ أَيْنَ يَسِيرُ بِي حَتَّى قَذَفَتْنِي ٱلْأَمْوَاجُ – لِحُسْنِ حَظِّي – إِلَى جَزِيرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَكَانَ شَاطِئُهَا مُرْتَفِعًا كَثِيرَ ٱلصُّخُورِ وَٱلْحِجَارَةِ ، فَتَمَكَّنْتُ مِنَ ٱلصُّعُودِ إِلَيْهِ – بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ – وَمَا كِدْتُ أَبْلُغُهُ حَتَّى ٱرْتَمَيْتُ عَلَى ٱلْأَرْضِ مَنْهُوكَ ٱلْقُوَى ، وَلَمَّا أَفَقْتُ بَدَأْتُ أَمْشِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ فَرَأَيْتُهَا جَنَّةً كَثِيرَةَ ٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَنْهَارِ ، فَأَكَلْتُ مِنْ فَاكِهَتِهَا ٱللَّذِيذَةِ وَشَرِبْتُ مِنْ مَائِهَا ٱلْعَذْبِ ، وَجَلَسْتُ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ أَتَنَسَّمُ ٱلْهَوَاءَ ٱللَّطِيفَ وَأُرَوِّحُ عَنْ نَفْسِي مَا لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءِ ٱلْبَحْرِ حَتَّى جَاءَ ٱللَّيْلُ ، فَنِمْتُ نَوْمًا هَادِئًا إِلَى ٱلصَّبَاحِ .

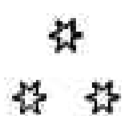
وَقُمْتُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي وَقَدْ عَادَ إِلَيَّ نَشَاطِي فَأَخَذْتُ أَمْشِي فِي ٱلْجَزِيرَةِ .

٧ – شَيْخُ ٱلْبَحْرِ

وَلَاحَ لِي شَبَحٌ مِنْ بَعِيدٍ ، فَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ ، فَإِذَا بِهِ شَيْخٌ كَبِيرٌ تَبْدُو عَلَيْهِ عَلَامَاتُ ٱلْهَرَمِ وَضَعْفُ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ جَالِسًا عَلَى نَهْرٍ فَحَسِبْتُهُ

مِمَّنْ رَمَاهُمْ سُوءُ الْحَظِّ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَقُلْتُ لَعَلَّ سَفِينَتَهُ غَرِقَتْ كَمَا غَرِقَتْ سَفِينَتِي ، وَرَمَاهُ الْمَوْجُ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ كَمَا رَمَانِي .

فَبَدَأْتُهُ بِالتَّحِيَّةِ — وَأَنَا فَرِحٌ بِلِقَائِهِ — فَهَزَّ لِي رَأْسَه رَدًّا عَلَى تَحِيَّتِي . فَسَأَلْتُهُ : « مَاذا يَصْنَعُ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؟ » فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَى ظَهْرِي إِلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ النَّهْرِ لِيَقْطِفَ مِنْهَا بَعْضَ الْفَاكِهَةِ ، فَأَخَذَتْنِي الشَّفَقَةُ عَلَيْهِ — لِضَعْفِه وَكِبَرِ سِنِّهِ — وَحَمَلْتُهُ عَلَى ظَهْرِي حَتَّى أَخَذَ مَاشَاءَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ فَاكِهَةٍ ، وَانْحَنَيْتُ لِأُنْزِلَهُ بِرِفْقٍ فَلَمْ يَنْزِلْ



إِنِّي كُلَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا الشَّيْخَ لَا أَمْلِكُ نَفْسِي مِنَ الضَّحِكِ ، فَقَدْ خُدِعْتُ فِيهِ ، إِذْ كُنْتُ أَحْسَبُهُ شَيْخًا ضَعِيفاً فَانِياً ، ثُمَّ بَدَتْ لِي حَقِيقَةُ أَمْرِهِ ، فَرَأَيْتُهُ قَوِيًّا شَدِيدَ الْقَسْوَةِ . فَقَدْ قَفَزَ عَلَى كَتِفَيَّ ، وَلَفَّ سَاقَيْهِ عَلَى عُنُقِي بِقُوَّةٍ حَتَّى كِدْتُ أَخْتَنِقُ ، وَأُغْمِيَ عَلَيَّ فَهَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، وَلَمَّا أَفَقْتُ وَجَدْتُ هَذَا الْعَدُوَّ الْقَاسِيَ لَا يَزَالُ عَلَى كَتِفَيَّ وَقَدْ فَرَجَ سَاقَيْهِ قَلِيلاً بِمِقْدَارِ مَا يُمَكِّنُنِي مِنَ التَّنَفُّسِ ، وَلَمَّا رَآنِي قَدْ أَفَقْتُ ضَرَبَنِي بِسَاقَيْهِ ضَرَبَاتٍ مُتَوَالِيَةً فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَسِرْتُ إِلَى حَيْثُ أَشَارَ ، وَمَا زَالَ يَأْكُلُ مَا يَحْلُو لَهُ مِنَ الْفَاكِهَةِ وَالثَّمَرِ طُولَ الْيَوْمِ وَجُزْءًا مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى ضَعُفَتْ قُوَايَ فَارْتَمَيْتُ عَلَى الْأَرْضِ — وَأَنَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ — لِشِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ

ٱلتَّعَبِ فَفَرَّجَ سَاقَيْهِ قَلِيلاً حَتَّى نِمْتُ ، وَلَمَّا طَلَعَ ٱلصُّبْحُ ظَلَّ يَضْرِبُنِي بِسَاقَيْهِ وَيَرْكُلُنِي بِقَدَمَيْهِ حَتَّى أَيْقَظَنِي ، وَقَضَيْتُ يَوْمِي كَمَا قَضَيْتُ ٱلْأَمْسِ مُتَأَلِّماً أَشَدَّ ٱلْأَلَمِ مِنْ هَذِهِ ٱلْمُصِيبَةِ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي ٱلْحُسْبَانِ ، وَلَمْ أَزَلْ عَلَى هَذِهِ ٱلْحَالِ مُدَّةً مِنَ ٱلزَّمَنِ .

٨ – الِانْتِقَامُ مِنْ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ وَجَدْتُ كَثِيراً مِنَ ٱلْعِنَبِ ٱلنَّاضِجِ وَإِلَى جَانِبِهِ قَرْعٌ يَابِسٌ كَبِيرُ ٱلْحَجْمِ ، فَقَسَمْتُهُ أَنْصَافاً وَغَسَلْتُهُ بِٱلْمَاءِ بِعِنَايَةٍ تَامَّةٍ ثُمَّ وَضَعْتُ فِيهِ شَيْئاً مِنَ ٱلْعِنَبِ وَتَرَكْتُهُ فِي ٱلشَّمْسِ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى ٱخْتَمَرَ ، وَشَرِبْتُ مِنْهُ قَلِيلاً فَبَدَتْ عَلَى وَجْهِي نَشْوَةُ ٱلْفَرَحِ ، فَأَشَارَ إِلَيَّ ٱلشَّيْخُ ٱلْمَلْعُونُ أَنْ أَسْقِيَهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْعَصِيرِ ، فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ طَلَبِهِ ، وَمَا زَالَ يَشْرَبُ حَتَّى ذَهَبَ عَقْلُهُ وَٱرْتَخَتْ سَاقَاهُ ، فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى



ٱلْأَرْضِ وَأَخَذْتُ حَجَراً كَبِيراً فَأَلْقَيْتُهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقُوَّةٍ فَقَتَلْتُهُ لِلْحَالِ . وَفَرِحْتُ بِهَذَا ٱلْفَوْزِ فَرَحاً لَا يُوصَفُ .

٩ – فِى ٱنْتِظَارِ ٱلْفَرَجِ

وَمَكَثْتُ عِدَّةَ أَيَّامٍ وَأَنَا أَتَرَدَّدُ عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ مُرْتَقِباً سَفِينَةً تَمُرُّ بِى حَتَّى أَذِنَ ٱللهُ لِى بِالْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِى لَا أَنِيسَ فِيهَا ، فَلَاحَتْ لِى سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ ، وَرَأَيْتُهَا تَقْتَرِبُ مِنَ ٱلْجَزِيرَةِ فَأَشَرْتُ إِلَى مَنْ فِيهَا فَأَقْبَلُوا عَلَيَّ وَبَدَأُونِى بِالتَّحِيَّةِ ، فَرَدَدْتُهَا عَلَيْهِمْ أَحْسَنَ رَدٍّ ، وَسَأَلُونِى عَنْ قِصَّتِى فَأَخْبَرْتُهُمْ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لِى فَعَجِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ ٱلْعَجَبِ ، وَقَالَ لِى أَحَدُهُمْ :

« لَقَدْ وَقَعْتَ فِى قَبْضَةِ شَيْخِ ٱلْبَحْرِ ، وَلَوْلَا عِنَايَةُ ٱللهِ وَلُطْفُهُ بِكَ لَمَا نَجَوْتَ مِنْهُ » وَكَانَتْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةُ مَشْهُورَةً عِنْدَ ٱلتُّجَّارِ بِأَنَّ مَنْ يَصِلُ إِلَيْهَا لَا تُكْتَبُ لَهُ ٱلسَّلَامَةُ .

١٠ – مَدِينَةُ ٱلْقُرُودِ

وَمَكَثْنَا مُدَّةً قَصِيرَةً مِنَ ٱلزَّمَنِ ثُمَّ أَقْلَعَتْ بِنَا ٱلسَّفِينَةُ وَقَدْ لَقِيتُ مِنْ رُبَّانِهَا عِنَايَةً كَبِيرَةً ، وَلَمْ نَزَلْ سَائِرِينَ فِى ٱلْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى مَدِينَةٍ جَمِيلَةٍ سَأَلْتُ ٱلرُّبَّانَ عَنِ ٱسْمِهَا فَأَخْبَرَنِى

أَنَّهَا مَدِينَةُ الْقُرُودِ ، وَقَدْ أَعْطَانِي أَحَدُ رِفَاقِي مِخْلَاةً كَبِيرَةً ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِي مِخْلَاةٌ مِثْلُهَا ، وَسَارُوا — وَأَنَا مَعَهُمْ — فَمَلأَ كُلٌّ مِنْهُمْ مِخْلَاتَهُ بِالْحِجَارَةِ وَفَعَلْتُ فِعْلَهُمْ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ حَتَّى بَلَغْنَا غَابَةً كَبِيرَةً مَمْلُوءَةً بِشَجَرِ النَّارَجِيلِ « الْجَوْزِ الْهِنْدِي » وَعَلَى كُلِّ شَجَرَةٍ جَمَاعَةٌ مِنَ الْقِرَدَةِ ، فَأَخَذَ التُّجَّارُ يَرْجُمُونَهَا بِالْحِجَارَةِ — وَاقْتَدَيْتُ بِهِمْ فِي ذَلِكَ — فَرَأَيْتُ الْقِرَدَةَ قَدْ اهْتَاجَتْ وَغَاظَهَا مِنَّا صَنِيعُنَا بِهَا ، فَأَخَذَتْ تَرْمِينَا بِالنَّارَجِيلِ — وَنَحْنُ نَجْمَعُهُ — حَتَّى مَلأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مِخْلَاتَهُ ، ثُمَّ عُدْنَا إِلَى السَّفِينَةِ ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ذَهَبْنَا جَمِيعًا إِلَى الْغَابَةِ وَصَنَعْنَا مَا صَنَعْنَاهُ بِالْأَمْسِ . وَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ حَتَّى جَمَعْنَا مِقْدَاراً كَبِيراً مِنَ النَّارَجِيلِ ، ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ فَبِعْنَا فِيهِ مَا مَعَنَا مِنَ النَّارَجِيلِ بِأَغْلَى ثَمَنٍ وَاشْتَرَيْنَا بِثَمَنِهِ كَثِيراً مِنَ التَّوَابِلِ وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ .

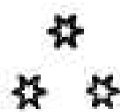
١١ — غَوَّاصُو اللُّؤْلُؤِ

وَمَا زِلْنَا نَنْتَقِلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَنَتَّجِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ نَحُلُّ بِهِ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ حَيْثُ رَأَيْنَا غَوَّاصِي اللُّؤْلُؤِ يَغُوصُونَ فِي أَعْمَاقِ الْبَحْرِ رَغْبَةً فِي الْحُصُولِ عَلَيْهِ ، فَطَلَبْتُ إِلَى أَحَدِ الْغَوَّاصِينَ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى قَرَارِ الْبَحْرِ وَيَجْمَعَ لِي مَا يُصِيبُهُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ

وَأَعْطَيْتُهُ أُجْرَهُ عَلَى ذَلِكَ فَفعلَ وَكَانَ حَظِّى سَعِيداً فَخَرَجَ وَمَعَهُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ شَىءٌ كَثِيرٌ .

١٢ – أَلْعَوْدَةُ إِلَى ٱلْوَطَنِ

وَعُدْتُ إِلَى «الْبَصْرَةِ» وَمَعِى مِنَ الْمَالِ وَاللُّؤْلُؤِ وَخَشَبِ الصَّنْدَلِ ثَرْوَةٌ طَائِلَةٌ ، ثُمَّ سَافَرْتُ مِنَ « الْبَصْرَةِ » إِلَى « بَغْدَادَ » فَلَقِيَنِى أَهْلِى وَأَصْحَابِى فَرِحِينَ بِعَوْدَتِى سَالِماً ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ بِمَالٍ كَثِيرٍ وَعَزَمْتُ عَلَى الْبَقَاءِ فِى « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِى آمِناً مُطْمَئِناً .



وَلَمَّا انْتَهَى « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا دَاعِياً لَهُ وَانْصَرَفَ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً مَسْرُوراً وَخَرَجَ مَعَهُ جَمِيعُ الْحَاضِرِينَ ، عَلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى « السِّنْدِبَادِ » فِى الْغَدِ

وَلَمَّا حَضَرُوا فِى الْيَوْمِ التَّالِى بَدَأَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ السَّادِسَةَ فَقَالَ :

فِي جَزِيرَةِ الْهَلَاكِ

١ – بَعْدَ عَامٍ

لَعَلَّكُمْ تَعْجَبُونَ أَشَدَّ الْعَجَبِ حِينَ تَعْلَمُونَ أَنَّنِي لَمْ أَتُبْ عَنِ السَّفَرِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ فِي أَسْفَارِي الْخَمْسَةِ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَهَالِكِ ، وَلَكُمُ الْعُذْرُ فِي هَذِهِ الدَّهْشَةِ ، فَإِنَّنِي – أَنَا نَفْسِي – أَعْجَبُ مِثْلَكُمْ مِنْ تِلْكَ الْمُجَازَفَةِ وَلَكِنَّ قَضَاءَ اللهِ لَا مَفَرَّ مِنْهُ ، فَقَدْ سَوَّلَتْ نَفْسِي الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ أَنْ أَشْقَى بَعْدَ الرَّاحَةِ وَأَحْتَمِلَ مِنَ الْآلَامِ وَالْمَخَاوِفِ فَوْقَ مَا احْتَمَلْتُ مِنْ قَبْلُ . بَعْدَ أَنْ بَقِيتُ فِي « بَغْدَادَ » سَنَةً كَامِلَةً نَاعِمًا مُرْتَاحَ الْقَلْبِ ، وَعَاوَدَنِي شَوْقٌ شَدِيدٌ إِلَى السَّفَرِ وَالِاتِّجَارِ ، وَبَذَلَ أَصْدِقَائِي كُلَّ مَا فِي وُسْعِهِمْ مِنْ نُصْحٍ لِيَثْنُوا عَزِيمَتِي وَيُعَوِّقُونِي عَنِ السَّفَرِ فَلَمْ يُفْلِحُوا .

٢ – هُبُوبُ الْعَاصِفَةِ

وَلَمَّا أَعْدَدْتُ عُدَّتِي وَاشْتَرَيْتُ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْبَضَائِعِ سَافَرْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ حَيْثُ أَبْحَرْتُ وَجَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ قَاصِدِينَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ ، وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِي الْبَحْرِ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ حَتَّى هَبَّتْ

عَلَيْنَا — ذَاتَ يَوْمٍ — عَاصِفَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَظَلَّتِ الْأَمْوَاجُ تَلْعَبُ بِالْمَرْكَبِ وَأَصْبَحْنَا مُهَدَّدِينَ بِالْغَرَقِ بَيْنَ سَاعَةٍ وَأُخْرَى ، وَمَكَثْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ يَوْماً وَلَيْلَةً ، ثُمَّ هَدَأَتِ الْعَاصِفَةُ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَّتْ سَفِينَتُنَا وَأَصْبَحْنَا لَا نَعْرِفُ فِي أَيِّ مَكَانٍ نَحْنُ وَلَا إِلَى أَيَّةِ جِهَةٍ نَقْصِدُ ، وَلَاحَ لَنَا جَبَلٌ شَاهِقٌ عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، وَلَمْ يَكَدْ يَتَبَيَّنُهُ الرُّبَّانُ حَتَّى صَرَخَ مِنَ الْجَزَعِ وَبَكَى ، فَسَأَلْنَاهُ : « مَاذَا حَدَثَ ؟ » فَأَجَابَنَا مُتَأَثِّراً حَزِيناً — :« لَقَدْ كُتِبَ عَلَيْنَا الْهَلَاكُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا أَمَلٌ فِي النَّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَادْعُوا اللهَ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلْيُوَدِّعْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِكُمُ الْهَلَاكُ فَإِنَّ سَفِينَتَنَا سَتَصْطَدِمُ — لَا مَحَالَةَ — بِهَذَا الْجَبَلِ الْعَالِي الَّذِي تَرَوْنَهُ ، وَلَمْ يَنْجُ مَرْكَبٌ وَصَلَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ ! »

*
* *

وَلَمْ يَكَدْ يُتِمُّ الرُّبَّانُ قَوْلَهُ حَتَّى رَأَيْنَا الْأَمْوَاجَ تَدْفَعُ الْمَرْكَبَ دَفْعًا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ ، وَحَاوَلْنَا أَنْ نُحَوِّلَ مَرْكَبَنَا إِلَى جِهَةٍ أُخْرَى فَلَمْ نُفْلِحْ ، وَمَا زَالَتِ السَّفِينَةُ سَائِرَةً بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى الْجَبَلِ فَاصْطَدَمَتْ بِهِ صَدْمَةً عَنِيفَةً حَطَّمَتْهَا تَحْطِيماً وَفَكَّكَتْ أَلْوَاحَهَا وَأَسْرَعَ كُلٌّ مِنَّا إِلَى لَوْحٍ مِنَ الْخَشَبِ لِيَنْجُوَ بِهِ مِنَ الْغَرَقِ

بَعْدَ انْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلسَّفِينَةِ أَنْفَسَ مَا فِيهَا ، وَمَا زِلْنَا مُجِدِّينَ فِي طَلَبِ ٱلْخَلَاصِ حَتَّى تَمَكَّنَّا – بَعْدَ جَهْدٍ جَهِيدٍ – مِنَ ٱلصُّعُودِ إِلَى ٱلشَّاطِئِ حَيْثُ وَضَعْنَا مَا حَمَلْنَاهُ مِنَ ٱلزَّادِ وَٱلنَّفَائِسِ ، فَقَالَ لَنَا ٱلرُّبَّانُ – : « يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْفِرَ قُبُورَنَا بِأَيْدِينَا ، فَلَيْسَ لَنَا أَمَلٌ فِي ٱلنَّجَاةِ مِنْ هَذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ ٱلَّتِي لَمْ تُكْتَبِ ٱلسَّلَامَةُ لِأَيِّ سَفِينَةٍ وَصَلَتْ إِلَيْهَا »

٣ – فِي جَزِيرَةِ ٱلْهَلَاكِ – عِظَامُ ٱلْمَوْتَى

وَقَدْ تَبَيَّنَ لَنَا صِدْقُ قَوْلِهِ ، فَقَدْ رَأَيْنَا أَمَامَنَا كَثِيراً مِنْ بَقَايَا



ٱلسُّفُنِ ٱلْمُحَطَّمَةِ وَلَاحَتْ مِنَّا ٱلْتِفَاتَةٌ فَرَأَيْنَا كَوْمَةً مِنْ عِظَامِ

الْمَوْتَى فَعَلِمْنَا أن مَصِيرَنَا سَيَكُونُ — بِلا شَكٍّ — مِثْلَ مَصِيرِهِمْ وَأَيْقَنَّا أَنَّ أَيَّامَنَا فِى الْحَيَاةِ مَعْدُودَةٌ ، وَقَطَعْنَا الْأَمَلَ مِنَ النَّجَاةِ ، وَكُنَّا نَرَى فِى كُلِّ مَكَانٍ — عَلَى شَاطِىءِ الْبَحْرِ — بَضَائِعَ وَذَخَائِرَ نَفِيسَةً مَطْرُوحَةً عَلَى الصُّخُورِ فَنَذْكُرُ مَصَارِعَ أَصْحَابِهَا مُتَرَقِّبِينَ اللَّحَاقَ بِهِمْ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ .

وَوَجَدْنَا نَهْراً عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ يَخْرُجُ مِنْ كَهْفٍ مُظْلِمٍ دُونَ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ ما وَرَاءَ هَذَا الْكَهْفِ ، وَرَأَيْنَا كَثِيراً مِنَ الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ — كَالْمَاسِ وَالْيَاقُوتِ وَالزُّمُرُّدِ — مُبَعْثَرَةً فِى كُلِّ مَكَانٍ فَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَمَا عُنِيَ أَحَدٌ مِنَّا بِجَمْعِهَا .

*
* *

وَبَقِينَا يَائِسِينَ فِى تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُوحِشَةِ لَا أَمَلَ لَنَا فِى النَّجَاةِ لِأَنَّ كُلَّ مَرْكَبٍ نَتَرَقَّبُ وُصُولَهُ إِلَيْنَا يَكُونُ نَصِيبُهُ أَنْ يُحَطَّمَ كَمَا حُطِّمَ مَرْكَبُنَا وَيَلْقَى مَنْ فِيهِ مِثْلَ مَا لَقِينَا .

وَقَدْ قَسَمَ الرُّبَّانُ مَا مَعَنَا مِنَ الزَّادِ قِسْمَةً عَادِلَةً .

٤ — بَعْدَ فَرَاغِ الزَّادِ

وَبَقِينَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ حَتَّى نَفِدَ مَا مَعَ رِفَاقِى مِنَ الزَّادِ فَمَاتُوا جُوعاً — وَاحِداً بَعْدَ الْآخَرِ — وَدَفَنْتُهُمْ جَمِيعاً

وَبَقِيتُ وَحْدِى بَعْدَهُمْ أَتَرَقَّبُ الْمَوْتَ ، وَكُنْتُ أَقْتَصِدُ فِى طَعَامِى فَلَا أَقْتَاتُ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا أَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْحَيَاةِ حَتَّى أَوْشَكَ زَادِى أَنْ يَنْفَدَ ، وَجَعَلْتُ أُفَكِّرُ فِى هَذِهِ الْخَاتِمَةِ الْمُحْزِنَةِ وَأَلُومُ نَفْسِى عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ الْمَشْئُومَةِ .

٥ – الأَمَلُ بَعْدَ اليَأْس

وَلَكِنِّى لَمْ أَسْتَسْلِمْ لِلْيَأْسِ فَمَشَيْتُ إِلَى النَّهْرِ ، وَجَعَلْتُ أُسَائِلُ نَفْسِى وَأَنَا أَتَأَمَّلُهُ : « أَيْنَ يَذْهَبُ هَذَا النَّهْرُ بَعْدَ أَنْ يَجْتَازَ الْكَهْفَ ؟ إِنَّهُ لَا بُدَّ آتٍ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ آهِلٍ بِالسُّكَّانِ خَلْفَ هَذَا الْجَبَلِ الْعَالِى ! » وَخَطَرَ لِى أَنْ أَصْنَعَ زَوْرَقًا ، وَقُلْتُ لِنَفْسِى : « إِنَّنِى إِنْ بَقِيتُ فِى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ فَأَنَا هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ ، فَإِذَا رَكِبْتُ زَوْرَقًا وَهَلَكْتُ دَاخِلَ الْكَهْفِ فَلَنْ أَخْسَرَ شَيْئًا .

وَأَكُونُ قَدْ بَذَلْتُ مَا فِى وُسْعِى وَلَمْ أُقَصِّرْ فِى شَىْءٍ .

وَمَنْ يَدْرِى فَرُبَّمَا نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ » .

٦ – زَوْرَقُ النَّجَاةِ

وَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِى إِنْفَاذِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ الْجَرِيئَةِ فَجَمَعْتُ مِنْ أَلْوَاحِ الْخَشَبِ مَا يَكْفِى لِصُنْعِ زَوْرَقٍ صَغِيرٍ ، وَلَمَّا أَتْمَمْتُهُ أَنْزَلْتُهُ إِلَى النَّهْرِ وَمَلَأْتُهُ بِقَدْرِ مَا يَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ مِنَ الذَّخَائِرِ النَّفِيسَةِ وَالْحِجَارَةِ

اُلْكَرِيمَةِ اُلْمُبَعْثَرَةِ فِى أَنْحَاءِ اُلْجَزِيرَةِ ، وَصَنَعْتُ مِجْدَافَيْنِ صَغِيرَيْنِ ، وَصَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى دُخُولِ ذَلِكَ اُلْكَهْفِ لِمَعْرِفَةِ مَا وَرَاءَهُ .

٧ – فِى ظُلْمَةِ الكَهْفِ

فَرَكِبْتُ زَوْرَقِى اُلصَّغِيرَ وَجَعَلْتُ أُجَدِّفُ فَرَأَيْتُ اُلزَّوْرَقَ يَسِيرُ بِى دَاخِلَ اُلْكَهْفِ بِسُرْعَةٍ ، وَوَجَدْتُنِى فِى ظَلَامٍ دَامِسٍ ، وَبَقِيتُ عَلَى هَذِهِ اُلْحَالِ مُدَّةً طَوِيلَةً حَسِبْتُهَا — لِهَوْلِ مَا أَنَا فِيهِ — أَيَّاماً وَلَيَالِيَ ، وَشَعَرْتُ بِأَنَّ اُلْمَكَانَ يَزْدَادُ ضِيقاً حَتَّى كَادَ زَوْرَقِى اُلصَّغِيرُ يَتَحَطَّمُ ، وَخَشِيتُ أَنْ يَصْطَدِمَ رَأْسِى بِسَقْفِ اُلْكَهْفِ فَاسْتَلْقَيْتُ عَلَى ظَهْرِى ، ثُمَّ أَجْهَدَنِى اُلْجُوعُ وَاُلتَّعَبُ وَغَلَبَنِى اُلنُّعَاسُ فَنِمْتُ نَوْماً عَمِيقاً .

٨ – اُلْخَلَاصُ مِنْ جَزِيرَةِ اُلْهَلَاكِ

وَلَمَّا اُسْتَيْقَظْتُ وَجَدْتُنِى قَدْ خَرَجْتُ مِنْ ظُلْمَةِ اُلْكَهْفِ إِلَى سَهْلٍ فَسِيحٍ ، وَرَأَيْتُ زَوْرَقِى مَرْبُوطاً إِلَى جَانِبِ اُلنَّهْرِ وَحَوْلِى جَمَاعَةٌ مِنَ اُلنَّاسِ يَنْظُرُونَ إِلَيَّ نَظَرَاتِ اُلْعَطْفِ وَاُلدَّهْشَةِ ، فَنَهَضْتُ شَاكِراً لَهُمْ حُسْنَ صَنِيعِهِمْ وَحَيَّيْتُهُمْ بِتَحِيَّةِ اُلْإِخْلَاصِ وَاُلْمَوَدَّةِ فَرَدُّوا عَلَيَّ بِكَلَامٍ لَمْ أَفْهَمْهُ ، وَلَمْ أَكَدْ أَتَبَيَّنُ أَنِّى قَدْ نَجَوْتُ

مِنْ جَزِيرَةِ الْهَلَاكِ حَتَّى امْتَلَأَتْ نَفْسِي فَرَحًا فَأَنْشَدْتُ قَوْلَ الْقَائِلِ:

«مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ»



٩ – فِي جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ

وَكَانَ أَحَدُ الْحَاضِرِينَ يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ فَفَهِمَ كَلَامِي وَعَرَفَ أَنِّي عَرَبِيٌّ فَاقْتَرَبَ مِنِّي وَقَالَ :

« لَا تَعْجَبْ يَا أَخِي وَلَا تَخْشَ شَيْئًا فَأَنْتَ فِي بِلَادِنَا ، وَقَدْ رَأَيْنَاكَ نَائِمًا فِي هَذَا الزَّوْرَقِ فَخَشِينَا عَلَيْكَ الْغَرَقَ وَرَبَطْنَاهُ إِلَى شَاطِئِ النَّهْرِ ، وَمَكَثْنَا حَوْلَكَ حَتَّى اسْتَيْقَظْتَ مِنْ نَوْمِكَ ، فَقُلْ لَنَا مِنْ أَيِّ مَكَانٍ أَتَيْتَ وَإِلَى أَيِّ مَكَانٍ تَقْصِدُ ؟ »

فَسَأَلْتُهُ « وَأَيْنَ أَنَا الآنَ ؟ »

فَقَالَ لِي : « أَنْتَ فِي جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ »

فَقُلْتُ لَهُ « إِنَّنِي أَكَادُ أَهْلِكُ جُوعًا »

فَأَسْرَعَ بِإِحْضَارِ الطَّعَامِ فَأَكَلْتُ حَتَّى شَبِعْتُ ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي فَتَرْجَمَهَا لِأَصْحَابِهِ فَعَجِبُوا أَشَدَّ الْعَجَبِ وَقَالُوا لِي : « إِنَّ قِصَّتَكَ عَجِيبَةٌ وَلاَ بُدَّ مِنْ ذَهَابِكَ مَعَنَا إِلَى الْمَلِكِ لِتَقُصَّهَا عَلَيْهِ »

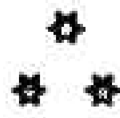
١٠ — فِي حَضْرَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَأَرْكَبُونِي جَوَاداً وَحَمَلُوا زَوْرَقِي — بِمَا فِيهِ — عَلَى أَكْتَافِهِمْ ، وَلَمْ نَزَلْ سَائِرِينَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ حَيَّيْتُهُ فَهَشَّ لِلِقَائِي وَرَدَّ عَلَيَّ التَّحِيَّةَ أَحْسَنَ رَدٍّ وَسَأَلَنِي عَنِ اسْمِي فَقُلْتُ لَهُ :

« اسْمِي السِّنْدِبَادُ وَيَدْعُونِي النَّاسُ بِاسْمِ السِّنْدِبَادِ الْبَحْرِيِّ لِكَثْرَةِ أَسْفَارِي وَرُكُوبِي الْبِحَارَ »

فَسَأَلَنِي الْمَلِكُ : « وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا ؟ »

فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي وَلَمْ أَكْتُمْ عَنْهُ شَيْئاً ، فَدَهِشَ الْمَلِكُ لِذَلِكَ أَشَدَّ دَهْشَةٍ ، وَفَرِحَ بِنَجَاتِي وَأَمَرَ أَنْ تُكْتَبَ قِصَّتِي بِمِدَادٍ مِنَ الذَّهَبِ لِغَرَابَتِهَا وَلِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ .



ثُمَّ رَأَى ٱلْمَلِكُ مَا فِي ٱلزَّوْرَقِ مِنْ كُنُوزٍ وَنَفَائِسَ ، وَنَظَرَ إِلَى مَا يَحْوِيهِ مِنَ ٱلْمَرْجَانِ وَٱلزُّمُرُّدِ وَٱلْمَاسِ وَهُوَ مُكَدَّسٌ أَكْدَاساً فَوَجَدَهُ أَثْمَنَ مِمَّا فِي خَزَائِنِهِ ، وَأَبْدَى دَهْشَتَهُ مِنْ ذَلِكَ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ مُعْجَباً بِتِلْكَ ٱلْكُنُوزِ ٱلَّتِي لَا تُقَوَّمُ بِثَمَنٍ عَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَقُلْتُ لَهُ :

« إِنَّنِي وَجَمِيعَ مَا أَمْلِكُ طَوْعُ أَمْرِكَ . »

فَأَجَابَنِي مُبْتَسِماً : « كَلَّا يَا سِنْدِبَادُ ، إِنَّ كُنُوزَكَ مِلْكٌ لَكَ لَا يُنَازِعُكَ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَسْتُ طَامِعاً فِيهَا ، وَلَنْ آخُذَ مِنْهَا شَيْئاً بَلْ أَزِيدُهَا لَكَ ، بَارَكَ ٱللهُ فِيكَ وَمَتَّعَكَ بِهَا ! »

فَشَكَرْتُهُ عَلَى ذَلِكَ شُكْراً جَزِيلاً .

١١ – فِي ضِيَافَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَأَعَدَّ لِي ٱلْمَلِكُ مَنْزِلاً مِنْ أَفْخَمِ مَنَازِلِهِ وَنَقَلَ إِلَيْهِ كُنُوزِي وَذَخَائِرِي وَهَيَّأَ لِي كُلَّ مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ عَبِيدٍ وَخَدَمٍ وَغَمَرَنِي بِكَرَمِهِ وَعَطْفِهِ ، وَهُوَ مَلِكٌ عَادِلٌ تُحِبُّهُ الرَّعِيَّةُ وَتُخْلِصُ لَهُ إِخْلَاصًا شَدِيدًا ، وَمِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَرْكَبَ الْفِيلَ فِي مَوْكِبٍ حَافِلٍ أَيَّامَ

الْأَعْيَادِ الْعَامَّةِ ، وَكَانَ لاَ يَمُرُّ بِي يَوْمٌ دُونَ أَنْ أَزُورَهُ وَأُكَرِّرَ



لَهُ الشُّكْرَ عَلَى هَذِهِ الْعِنَايَةِ الْعَظِيمَةِ ، ثُمَّ أَخْرُجَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَرَى فِيهَا غَرَائِبَ وَأَعَاجِيبَ لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَصِفَهَا لَكُمْ لِكَثْرَتِهَا .

١٢ — عَجَائِبُ سَرَنْدِيبَ

وَمِمَّا أَذْكُرُهُ لَكُمْ مِنْ عَجَائِبِهَا — عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ — أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فِيهَا مُتَسَاوِيَانِ فِي الطُّولِ دَائِمًا بِسَبَبِ وُقُوعِهَا عَلَى خَطِّ الاِسْتِوَاءِ ، وَأَنَّ فِيهَا جَبَلاً مِنْ أَعْلَى جِبَالِ الدُّنْيَا ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَصْعَدُ إِلَى قِمَّتِهِ أَحْيَانًا لِأُمَتِّعَ نَفْسِي بِجَمَالِ الطَّبِيعَةِ الْفَاتِنِ كَمَا كُنْتُ أَذْهَبُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَأَرَى الْغَوَّاصِينَ يَسْتَخْرِجُونَ اللُّؤْلُؤَ ؟

١٣ ـ كِتابُ المَلِكِ إلَى الخَلِيفَةِ

وَمَكَثْتُ فِي تِلْكَ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَمِيلَةِ عِدَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱشْتَاقَتْ نَفْسِي إِلَى رُؤْيَةِ وَطَنِي وَٱلْعَوْدَةِ إِلَى بِلَادِي ، فَٱسْتَأْذَنْتُ ٱلْمَلِكَ فِي السَّفَرِ فَتَفَضَّلَ عَلَيَّ بِٱلإِذْنِ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَمَرَ لِي بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْهَدَايَا ٱلْغَالِيَةِ . وَلَمَّا جَاءَ يَوْمُ السَّفَرِ وَدَّعَنِي وَحَمَّلَنِي كِتَاباً رَقِيقاً إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » وَهَدَايَا نَفِيسَةً لَا تُقَوَّمُ بِثَمَنٍ .

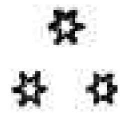
١٤ ـ ٱلْعَوْدَةُ إِلَى بَغْدَادَ

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِيَ ٱلسَّفِينَةُ إِلَى بِلَادِي ، وَلَمْ تَزَلْ سَائِرَةً أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى « ٱلْبَصْرَةِ » حَيْثُ سَافَرْتُ إِلَى « بَغْدَادَ » فَقَابَلَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي أَحْسَنَ مُقَابَلَةٍ ، وَتَصَدَّقْتُ عَلَى ٱلْفُقَرَاءِ وَٱلْمَسَاكِينِ ، وَأَجْزَلْتُ لَهُمُ ٱلْعَطَاءَ وَعَزَمْتُ عَلَى تَرْكِ ٱلسَّفَرِ وَٱلْبَقَاءِ فِي « بَغْدَادَ » طُولَ عُمْرِي حَتَّى لَا أُعَرِّضَ نَفْسِي لِلْأَخْطَارِ وَٱلْمَخَاوِفِ بَعْدَ مَا نَجَوْتُ مِنْهَا .

١٥ ـ فِي حَضْرَةِ ٱلْخَلِيفَةِ

ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » فَمَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قِصَّتِي وَقَدَّمْتُ لَهُ مَا أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ مَلِكُ « سَرَنْدِيبَ » مِنَ ٱلْهَدَايَا النَّفِيسَةِ ، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ عَجَباً شَدِيداً .

وَقَرَأَ كِتَابَ ٱلْمَلِكِ فَرَآهُ يَفِيضُ بِالرِّقَّةِ وَٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْإِخْلَاصِ، فَشَكَرَنِي عَلَى ذَلِكَ وَأَمَرَ لِي بِجَائِزَةٍ حَسَنَةٍ وَشَمَلَنِي بِعَطْفِهِ وَحُبِّهِ.



وَلَمَّا فَرَغَ « السِّنْدِبَادُ » مِنْ كَلَامِهِ أَمَرَ لِلْحَمَّالِ بِمِائَةِ دِينَارٍ فَأَخَذَهَا مِنْهُ شَاكِرًا وَٱنْصَرَفَ مَعَ جَمِيعِ ٱلْحَاضِرِينَ.

وَلَمَّا حَضَرُوا فِي ٱلْيَوْمِ ٱلتَّالِي أَخَذَ « السِّنْدِبَادُ » يَقُصُّ عَلَيْهِمْ رِحْلَتَهُ السَّابِعَةَ فَقَالَ:

مع الأفيال

١ — تَوْبَةُ ٱلسِّنْدِبَادِ عَنِ ٱلسفرِ

عَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ عُدْتُ مِنْ رِحْلَتِي السَّادِسَةِ — عَلَى تَرْكِ الْأَسْفَارِ بَعْدَ مَا لَقِيتُهُ فِيهَا مِنَ ٱلمَخَاوِفِ وَٱلْأَخْطَارِ ٱلَّتِي تَشِيبُ مِنْ هَوْلِهَا ٱلْوِلْدَانُ . وَعَاهَدْتُ نَفْسِي عَهْداً وَثِيقاً أَنْ أَقْضِيَ ٱلْبَقِيَّةَ ٱلْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِي فِي رَاحَةٍ وَطُمَأْنِينَةٍ بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ شَيْخاً كَبِيرَ ٱلسِّنِّ ، وَكَرِهَتْ نَفْسِي ٱلْغُرْبَةَ وَٱلسَّفَرَ وَشَعَرْتُ بِمَيْلٍ شَدِيدٍ إِلَى ٱلرَّاحَةِ فَتُبْتُ عَنِ ٱلسَّفَرِ تَوْبَةً صَادِقَةً وَصَحَّ عَزْمِي عَلَى ٱلْبَقَاءِ فِي « بَغْدَادَ » نَاعِماً هَادِئَ ٱلْبَالِ لَا يُعَكِّرُ صَفْوِي أَيُّ كَدَرٍ .

٢ — نقضُ ٱلتَوْبَةِ

تَمَنَّيْتُ أَنْ تَنْصَرِفَ عَنِّي دَوَاعِي السَّفَرِ وَٱلاغْتِرَابِ ، وَلَكِنْ مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى ٱلْمَرْءُ يُدْرِكُهُ ، فَقَدْ عَرَضَ لِي مَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْحُسْبَانِ إِذْ جَاءَنِي رَسُولٌ مِنْ قِبَلِ ٱلْخَلِيفَةِ « هَارُونَ ٱلرَّشِيدِ » يَسْتَدْعِينِي إِلَى مُقَابَلَتِهِ — وَكُنْتُ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ جَالِسًا بَيْنَ أَصْدِقَائِي مُطْمَئِنَّ ٱلْبَالِ — فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي تَلْبِيَةِ ٱلْأَمْرِ .

٣ — فِي حَضْرَةِ ٱلْخَلِيفَةِ

وَلَمَّا مَثَلْتُ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْخَلِيفَةِ حَيَّيْتُهُ فَرَحَّبَ بِقُدُومِي ثُمَّ



قَالَ لِي — : « لَقَدِ ٱخْتَرْتُكَ يَا سِنْدِبَادُ — دُونَ سِوَاكَ مِنَ ٱلنَّاسِ — لِتَذْهَبَ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » وَتَحْمِلَ إِلَيْهِ هَذِهِ ٱلْهَدِيَّةَ وَتُبَلِّغَهُ سَلَامِي وَتَحِيَّاتِي » فَوَقَعَ عَلَيَّ هَذَا ٱلْخَبَرُ وُقُوعَ ٱلصَّاعِقَةِ ، وَقُلْتُ لَهُ :

« أَنَا عَبْدُكَ ٱلْخَاضِعُ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَعْصِيَ لَكَ أَمْرًا ، وَلٰكِنَّنِي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ أَنْ تُعْفِيَنِي مِنَ ٱلْقِيَامِ فِي هَذَا ٱلْأَمْرِ ، فَقَدْ تُبْتُ عَنِ ٱلسَّفَرِ تَوْبَةً صَادِقَةً وَأَقْسَمْتُ أَلَّا أُفَارِقَ بَلَدِي ، وَقَدْ أَصْبَحْتُ ٱلْآنَ شَيْخًا كَبِيرَ ٱلسِّنِّ لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى ٱلسَّفَرِ وَمَتَاعِبِهِ ! »

ثُمَّ قَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِى فِى أَسْفَارِى السَّابِقَةِ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَخَاوِفِ فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ وَقَالَ لِى : « حَقًّا إِنَّ قِصَّتَكَ هَذِهِ مِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُنِى أَنْ أَعْهَدَ إِلَيْكَ بِمَا أَرَدْتُ ، وَلَسْتُ أُكَلِّفُكَ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » وَتَحْمِلَ إِلَيْهِ هَدِيَّتِى وَتَحِيَّتِى ثُمَّ تَعُودَ إِلَيْنَا سَالِماً آمِناً ، فَلَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَبْدَأَنِى بِالْوُدِّ وَالْإِخْلَاصِ فَلَا أُجِيبُهُ بِمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الشُّكْرِ وَالثَّنَاءِ ؟ »

٤ – السَّفَرُ إِلَى جَزِيرَةِ سَرَنْدِيبَ

فَلَمْ أَسْتَطِعْ مُخَالَفَةَ أَمْرِهِ ، وَأَجَبْتُهُ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فَفَرِحَ فَرَحاً شَدِيداً وَمَنَحَنِى أَلْفَ دِينَارٍ – مُكَافَأَةً لِى عَلَى ذَلِكَ – ثُمَّ أَمَرَ لِى بِمَالٍ كَثِيرٍ – فَوْقَ مَا أَعْطَانِى – لِأُنْفِقَ مِنْهُ عَلَى هَذِهِ الرِّحْلَةِ .

فَسَافَرْتُ بِهَدِيَّتِهِ وَكِتَابِهِ إِلَى جَزِيرَةِ « سَرَنْدِيبَ » وَطَابَتْ لَنَا الرِّيحُ أَيَّاماً وَلَيَالِىَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَيْهَا سَالِمِينَ .

٥ – فِى حَضْرَةِ مَلِكِ سَرَنْدِيبَ

وَلَمْ أَكَدْ أَذْهَبُ إِلَى مَلِكِ « سَرَنْدِيبَ » حَتَّى أَقْبَلَ عَلَىَّ وَفَرِحَ بِقُدُومِى فَرَحاً شَدِيداً وَقَالَ لِى – : « لَقَدْ كُنْتُ فِى شَوْقٍ

شَدِيدٍ إِلَيْكَ يَا سِنْدِبَادُ ، وَكُنْتُ كَثِيراً مَا أُثْنِي عَلَيْكَ وَأُعجبُ بِصِدْقِ عَزِيمَتِكَ . »

فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ ، وَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ كِتَابَ الْخَلِيفَةِ وَهَدِيَّتَهُ فَسُرَّ بِهِمَا سُرُوراً عَظِيماً ، وَمَكَثْتُ فِي ضِيَافَتِهِ أَيَّاماً كَثِيرَةً ثُمَّ اسْتَأْذَنْتُهُ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى بَلَدِي فَأَسِفَ عَلَى ذَلِكَ أَشَدَّ الْأَسَفِ ، وَلَمْ يَأْذَنْ لِي فِي السَّفَرِ إِلَّا بَعْدَ جَهْدٍ عَظِيمٍ لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ بِي ، وَأَهْدَانِي شَيْئاً كَثِيراً مِنَ النَّفَائِسِ وَالتُّحَفِ فَقَبِلْتُهَا شَاكِراً ، ثُمَّ وَدَّعْتُهُ وَأَنَا آسِفٌ عَلَى فِرَاقِهِ .

٦ — لُصُوصُ الْبَحْرِ

وَرَأَيْتُ إِحْدَى السُّفُنِ ذَاهِبَةً إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَنَزَلْتُ إِلَيْهَا وَسَارَتْ بِنَا فِي الْبَحْرِ وَكَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً وَالْأُمُورُ عَلَى مَا يُرَامُ فَبَقِينَا أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ نَلْهُو وَنَلْعَبُ وَنُغَنِّي فَرِحِينَ بِقُرْبِ الْعَوْدَةِ إِلَى الْوَطَنِ ، وَفِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ فَاجَأَنَا لُصُوصُ الْبَحْرِ



فَقَتَلُوا كُلَّ مَنْ قَاوَمَهُمْ شَرَّ قِتْلَةٍ وَسَلَبُوا مَا مَعَنَا مِنْ ثَرْوَةٍ وَمَتَاعٍ

وَأَسَرُوا مَنْ بَقِيَ مِنَّا وَوَقَعْتُ فِي قَبْضَتِهِمْ أَسِيراً ، ثُمَّ ذَهَبُوا بِمَرْكَبِنَا إِلَى جَزِيرَةٍ بَعِيدَةٍ فَبَاعُونَا فِيهَا بَيْعَ الْعَبِيدِ ، فَاشْتَرَانِي تَاجِرٌ غَنِيٌّ وَأَطْعَمَنِي وَكَسَانِي وَآوَانِي عِنْدَهُ ، ثُمَّ سَأَلَنِي بَعْدَ أَيَّامٍ قَلَائِلَ عَمَّا أُحْسِنُهُ مِنَ الْعَمَلِ فَقُلْتُ لَهُ — : « أَنَا تَاجِرٌ غَنِيٌّ لَا أُحْسِنُ عَمَلاً غَيْرَ التِّجَارَةِ وَقَدْ وَقَعْتُ فِي قَبْضَةِ لُصُوصِ الْبَحْرِ أَسِيراً . »

فَقَالَ لِي : « أَلَمْ تَتَعَلَّمِ الصَّيْدَ ؟ » فَأَجَبْتُهُ :

« لَقَدْ تَعَلَّمْتُهُ فِي صِبَايَ ، وَفِي قُدْرَتِي أَنْ أُحْسِنَهُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الْمَرَانَةِ . »

٧ — صَيْدُ الْفِيلِ

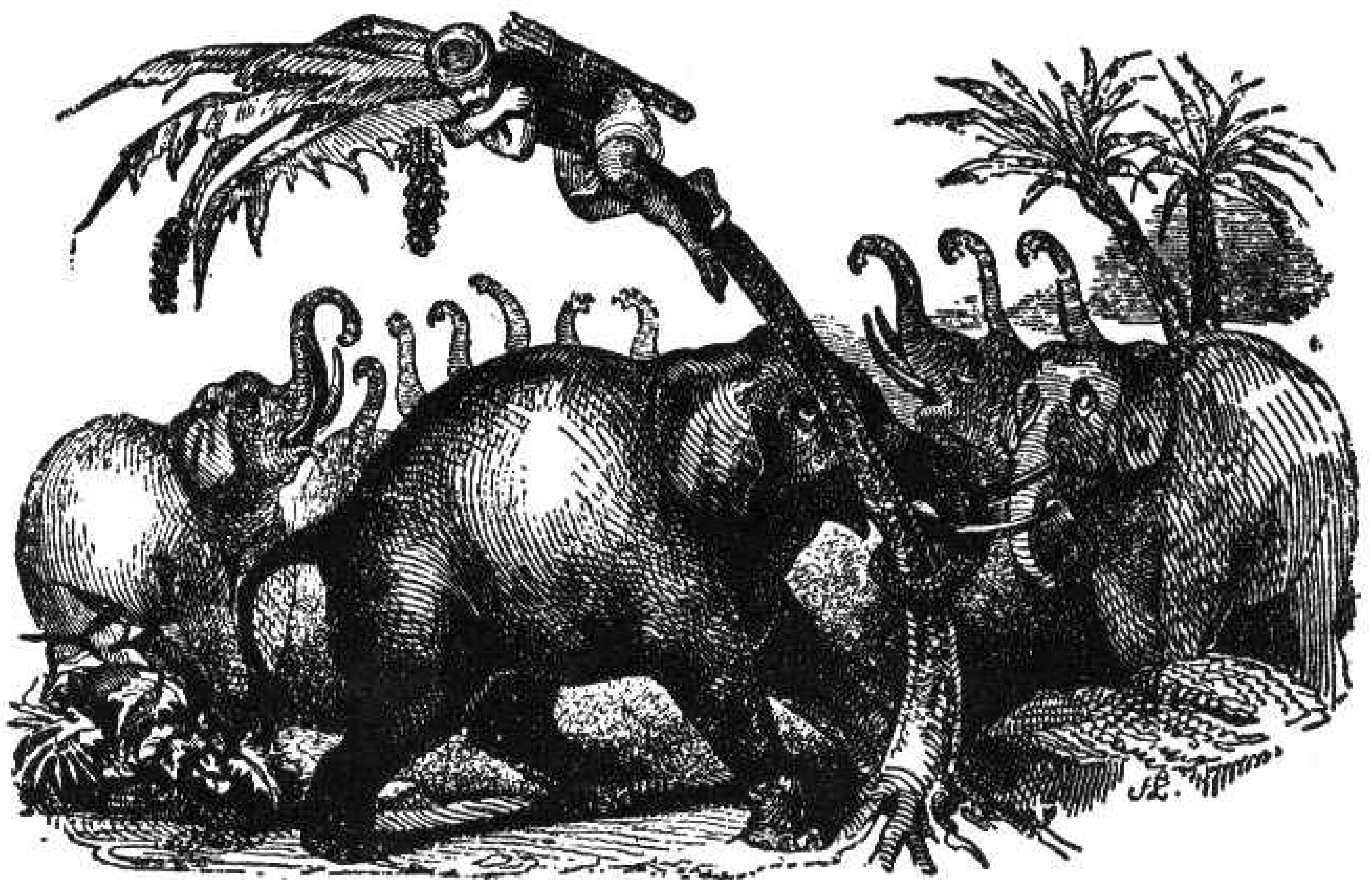
فَأَعْطَانِي قَوْساً وَنِبَالاً وَأَرْكَبَنِي مَعَهُ فِيلاً ، ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى غَابَةٍ بَعِيدَةٍ وَقَالَ لِي : « إِنَّ هَذِهِ الْغَابَةَ مَمْلُوءَةٌ بِالْفِيَلَةِ ، وَكُلُّ مَا أَطْلُبُهُ مِنْكَ أَنْ تَخْتَبِئَ فِي بَعْضِ الْأَشْجَارِ الْعَالِيَةِ وَمَعَكَ قَوْسُكَ وَنِبَالُكَ فَإِذَا اصْطَدْتَ فِيلاً عُدْتَ إِلَيَّ لِتُخْبِرَنِي بِذَلِكَ . »

ثُمَّ رَجَعَ مِنْ حَيْثُ أَتَى وَتَرَكَنِي وَحْدِي ، فَصَعِدْتُ إِلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ وَبَقِيتُ عَلَيْهَا طُولَ اللَّيْلِ فَلَمْ أَرَ شَيْئاً ، وَلَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ رَأَيْتُ قَطِيعاً مِنَ الْفِيَلَةِ يَقْتَرِبُ فَأَطْلَقْتُ سِهَامِي عَلَى أَحَدِهَا فَقَتَلْتُهُ وَهَرَبَ بَاقِي الْفِيَلَةِ ، فَذَهَبْتُ إِلَى سَيِّدِي وَأَخْبَرْتُهُ بِمَا فَعَلْتُ فَسُرَّ بِذَلِكَ وَشَكَرَنِي شُكْراً جَزِيلاً وَعَادَ مَعِي إِلَى

الْغَابَةِ فَحفرْنا حُفْرَةً كَبِيرَةً وَارَيْنَا فِيهَا جُثَّةَ الْفِيلِ حَتَّى إِذَا مَضَى عَلَيْهِ زَمَنٌ طَوِيلٌ عَادَ إِلَيْهِ فَأَخذَ عِظَامَهُ لِيَبِيعَهَا بِأَغْلَى ثَمَنٍ .

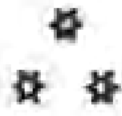
٨ – مَعَ الأَفْيَالِ

وَمَا زِلْتُ أَصْطَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ فِيلًا وَأَدْفِنُهُ حَتَّى مَضَى عَلَيَّ شَهْرَانِ ، وَكُنْتُ أَتَنَقَّلُ مِنْ شَجَرَةٍ إِلَى أُخْرَى حَتَّى لَا تَفْطَنَ الْفِيَلَةُ إِلَى مَكَانِي ، وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ رَأَيْتُ قَطِيعاً مِنْهَا مُسْرِعاً إِلَى



الشَّجَرَةِ الَّتِي كُنْتُ فَوْقَهَا . فَتَوَقَّعْتُ الشَّرَّ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ جَاءَتِ الأَفْيَالُ فَأَحَاطَتْ بِالشَّجَرَةِ وَجَعَلَتْ تُحَرِّكُ خَرَاطِيمَهَا بِعُنْفٍ وَشِدَّةٍ . – وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ وَتُحَدِّقُ فِيَّ – فَامْتَلأَ قَلْبِي رُعْباً وَسَقَطَ الْقَوْسُ وَالنِّبَالُ مِنْ يَدِي . وَجَاءَ فِيلٌ كَبِيرٌ فَلَفَّ خُرْطُومَهُ عَلَى جِذْعِ

ٱلشَّجَرَةِ ٱلَّتِي كُنْتُ فَوْقَهَا . وَجَذَبَهَا إِلَيْهِ جَذْبَةً قَوِيَّةً . فَاقْتَلَعَهَا مِنْ جُذُورِهَا وَهَوَيْتُ إِلَى ٱلْأَرْضِ .



وَٱقْتَرَبَ ٱلْفِيلُ مِنِّي فَرَفَعَنِي بِخُرْطُومِهِ وَأَجْلَسَنِي عَلَى ظَهْرِهِ وَأَنَا بَيْنَ ٱلْحَيَاةِ وَٱلْمَوْتِ مِنْ شِدَّةِ مَا لَحِقَنِي مِنَ ٱلْخَوْفِ . ثُمَّ سَارَ بِي وَمِنْ خَلْفِهِ ٱلْأَفْيَالُ ٱلْأُخْرَى إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ حَيْثُ وَقَفَ وَأَنْزَلَنِي إِلَى ٱلْأَرْضِ وَعَادَتِ ٱلْفِيَلَةُ دُونَ أَنْ



تَمَسَّنِي بِأَذًى ، فَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنِّي حَالِمٌ ، وَكِدْتُ لَا أُصَدِّقُ مَا أَرَاهُ

٩ — مَقْبَرَةُ ٱلْفِيَلَةِ

وَنَظَرْتُ فِيمَا حَوْلِى فَرَأَيْتُ كَوْمَةً مِنْ عِظَامِ ٱلْأَفْيَالِ وَأَنْيَابِهَا فَأَدْرَكْتُ أَنَّهَا لَمْ تُحْضِرْنِى إِلَى هَذَا ٱلْمَكَانِ إِلَّا لِأَكُفَّ عَنْ قَتْلِهَا. وَكَأَنَّهَا عَلِمَتْ أَنِّى لَا أَقْتُلُهَا إِلَّا بُغْيَةَ ٱلْحُصُولِ عَلَى ٱلْعَاجِ فَجَاءَتْ بِى إِلَى هَذِهِ ٱلْمَقْبَرَةِ لِأَحْمِلَ مِنْهُ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ

وَعُدْتُ مُسْرِعاً إِلَى سَيِّدِى فَلَمْ يَكَدْ يَرَانِى حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ يُهَنِّئُنِى بِالسَّلَامَةِ وَقَالَ : « لَقَدْ مَرَرْتُ بِالْغَابَةِ ٱلْيَوْمَ فَرَأَيْتُ قَوْسَكَ وَنِبَالَكَ مُلْقَاةً عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَى جَانِبِ شَجَرَةٍ مُقْتَلَعَةٍ مِنْ جُذُورِهَا فَأَيْقَنْتُ أَنَّ ٱلْأَفْيَالَ قَتَلَتْكَ كَمَا قَتَلَتْ غَيْرَكَ مِنْ عَبِيدِنَا مِنْ قَبْلُ. فَكَيْفَ نَجَوْتَ ؟ » فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ لِى فَعَجِبَ وَسَارَ مَعِى حَتَّى رَأَى صِدْقَ مَا قُلْتُهُ .

١٠ — خَلَاصُ السِّنْدِبَادِ مِنَ ٱلْأَسْرِ

فَفَرِحَ بِذَلِكَ فَرَحاً شَدِيداً وَشَكَرَنِى عَلَى ذَكَائِى كُلَّ ٱلشُّكْرِ، وَقَالَ لِى : « لَقَدْ هَدَيْتَنِى إِلَى طَرِيقِ ثَرْوَةٍ طَائِلَةٍ لَمْ أَكُنْ لِأَحْلُمَ بِهَا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ أَعْتَقْتُكَ وَجَعَلْتُكَ حُرًّا » . فَشَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ وَفَرِحْتُ بِخَلَاصِى مِنَ ٱلْأَسْرِ وَٱلْعُبُودِيَّةِ ، وَٱسْتَأْذَنْتُهُ فِى ٱلْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِى فَأَعْطَانِى مَالاً كَثِيراً وَهَدَايَا نَفِيسَةً . وَمِقْدَاراً وَافِراً مِنَ ٱلْعَاجِ بِعْتُهُ — فِيمَا بَعْدُ — بِأَغْلَى ثَمَنٍ .

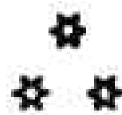
١١ – الْعَوْدَةُ إِلَى الْوَطَنِ

ثُمَّ نَزَلْتُ إِلَى مَرْكَبٍ كَانَ مُسَافِراً إِلَى « الْبَصْرَةِ » فَسَارَ فِي الْبَحْرِ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَلَدٍ كَبِيرٍ . فَأَسْرَعْتُ بِالنُّزُولِ وَأَنَا أَحْمَدُ اللهَ عَلَى سَلَامَتِي مِنَ الْبَحْرِ ، وَذَهَبْتُ مَعَ قَافِلَةٍ كَانَتْ سَائِرَةً إِلَى « بَغْدَادَ » وَمَا زِلْنَا سَائِرِينَ فِي الْبَرِّ أَيَّاماً وَلَيَالِيَ حَتَّى وَصَلْنَا إِلَيْهَا .

١٢ – فِي بَغْدَادَ

وَلَمْ أَكَدْ أَدْخُلُ « بَغْدَادَ » حَتَّى قَابَلَنِي أَهْلِي وَأَصْحَابِي فَرِحِينَ بِعَوْدَتِي سَالِماً . وَلَمَّا ذَهَبْتُ إِلَى الْخَلِيفَةِ « هَارُونَ الرَّشِيدِ » قَابَلَنِي أَحْسَنَ مُقَابَلَةٍ وَفَرِحَ بِقُدُومِي أَشَدَّ الْفَرَحِ وَقَالَ لِي :

« لَقَدْ أَقْلَقَنِي غِيَابُكَ وَخَشِيتُ عَلَيْكَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَكَ سُوءٌ ، فَمَاذَا عَوَّقَكَ ؟ »

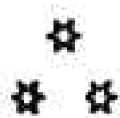


فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مَا حَدَثَ لِي فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْعَجَبِ وَأَمَرَ أَنْ تُكْتَبَ قِصَّتِي بِمِدَادٍ مِنْ ذَهَبٍ لِتَكُونَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ قَرَأَهَا ، وَكَافَأَنِي أَجْزَلَ مُكَافَأَةٍ فَعُدْتُ مِنْ عِنْدِهِ شَاكِراً .

وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَنَا فِي « بَغْدَادَ » أَنْعَمُ بَيْنَ أَهْلِي وَأَصْحَابِي بَعِيداً عَنِ الْأَسْفَارِ آمِناً مِنَ الْمَخَاوِفِ وَالْأَخْطَارِ .

١٣ – خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمَّا انْتَهَى السِّنْدِبَادُ مِنْ كَلامِهِ ، الْتَفَتَ إِلَى الْهِنْدِبَادِ الْحَمَّالِ وَقَالَ لَهُ : « وَالآنَ مَا رَأْيُكَ أَيُّهَا الصَّدِيقُ ؟ هَلْ سَمِعْتَ فِي حَيَاتِكَ أَغْرَبَ مِنْ هَـــذِهِ الْقِصَّةِ ؟ وَهَلْ تَعَرَّضَ أَحَدٌ لِمِثْلِ مَا تَعَرَّضْتُ لَهُ مِنَ الْمَهَالِكِ وَالْأَخْطَارِ ؟ أَلَيْسَ مِنْ حَقِّي — بَعْدَ كُلِّ مَا لَقِيتُهُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالأَهْوَالِ — أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِي هَادِئًا مُطْمَئِنًّا ؟ »



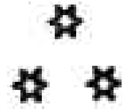
فَقَامَ إِلَيْهِ « الْهِنْدِبَادُ » الْحَمَّالُ وَقَبَّلَ يَدَهُ — فِي احْتِرَامٍ وَأَدَبٍ — ثُمَّ قَالَ لَهُ :

« الْحَقُّ أَنَّنِي لَمْ أَسْمَعْ أَغْرَبَ مِنْ قِصَّتِكَ ، وَلَسْتُ أَرَى أَحَدًا أَجْدَرَ مِنْكَ بِالسَّعَادَةِ لِأَنَّكَ أَدْرَكْتَهَا بِجِدِّكَ وَاجْتِهَادِكَ ، وَلَيْسَتْ مَتَاعِبِي الَّتِي أَحْتَمِلُهَا كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا مَذْكُورًا إِذَا قِيسَتْ إِلَى رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ رِحْلَاتِكَ الْعَجِيبَةِ ! وَلَقَدْ صَدَقَ الْقَائِلُ :

« مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ »

وَقَدْ حَلَّاكَ اللهُ بِصِفَاتٍ نَادِرَةٍ ، فَأَنْتَ — فَضْلًا عَنْ شَجَاعَتِكَ وَجُرْأَتِكَ — مُحْسِنٌ بَارٌّ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَلَيْسَ لِي مَا أُكَافِئُكَ

بِهِ — بَعْدَ الثَّنَاءِ عَلَيْكَ — إِلَّا الدُّعَاءَ لَكَ ، بَارَكَ اللهُ فِيكَ وَأَطَالَ عُمْرَكَ وَمَتَّعَكَ بِثَرْوَتِكَ وَصِحَّتِكَ » .



فَهَشَّ لَهُ « السِّنْدِبَادُ » وقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ومَنَحَهُ مِائَةَ دِينَارٍ أُخْرَى ، وطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مَعَهُ كُلَّ يَوْمٍ .

واتخَذَهُ « السِّنْدِبَادُ » صَاحِباً لَهُ فَأَغْنَاهُ بَعْدَ فَقْرِهِ ، وأَصْبَحَ « الْهِنْدِبَادُ » — مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ — مِنْ خِيرَةِ أَصْفِيَاءِ « السِّنْدِبَادِ » وَنُدَمَائِهِ .

انْتَهَتِ القِصَّةُ الْأُولَى

فهرست

الرحلة الأولى

على ظهر حوت

الرحلة الثانية

فى وادى الأفاعى

الرحلة الثالثة

فى بلاد الأقزام والعمالقة

الرحلة الرابعة

بين جماجم الموتى

الرحلة الخامسة

« ١ » شيخ البحر « ٢ » مدينة القرود

الرحلة السادسة

فى جزيرة الهلاك

الرحلة السابعة

مع الأفيال

مكتبة الكيلانى للأطفال

... وهكذا نجحت - يا أستاذ - فى أن تحبب إلى الأطفال مكتبتهم وتغريهم بالمطالعة(١) . ولئن أدرك الأطفال - برياض الأطفال - مراداً بعيداً ، لقد فتحت لهم - بمكتبة الأطفال - فتحا جديداً . أدركت أرب نفوسهم ، وأبدلتهم أنسًا من عبوسهم ، وهجت للمعالى أشواقهم ، وحسنت لغتهم وأخلاقهم(٢) . والأستاذ الكيلانى منشئ مكتبة الأطفال أديب عالمى جدير بما يهدف إليه من نبيل الأغراض(٣) . وإنه ليسرنى - إذ أتابع مع التقدير هذا الجهد العلمى المتواصل - أن ألاحظ مقدار العناية التى تبذلونها فى هذا السبيل ، والفائدة التى تعود على النشء منه ، بتهيئة أذهان الأطفال وعقولهم لتقبل خير الأفكار والمعانى ، وتقديمها لهم على مثل هذه الصورة الطريفة(٤) . فالله يكافئك على ما قدمته للعربية من روائع أدب ، تضيف إلى كنوزها كنوزًا(٥) . وإنى وقد تتبعت هذا المجهود القيم المتصل لا يسعنى إلا الإعجاب بما تساهمون به فى سد نقص يشعر به جميع الآباء فى تعليم أطفالهم(٦) . فشكر الله لك ما هدفت إليه من تنشئة الطفل مشبوب الشغف بالقراءة والدرس ، موفور الحظ من متاع الفكر ، مستقيم اللسان على نهج البيان(٧) . فهى تتمشى مع طباع الطفل الشرقى وغرائزه حتى يترعرع . وتجعل الحلقة متصلة بين المدرسة والبيت فى قصص مناسبة متماسكة مع نفسية الطفل وعقليته وبيئته وما يهوى سماعه أو يميل لوعيه ، بأسلوب صحيح فصيح ، إذا حفظه الصبى صغيراً نفعه كبيراً(٨) . ومن ثم يشب الطفل ، وقد صحت ملكته ، وأشربت الفصحى فكرته(٩) .

---

(١) أحمد لطفى السيد (٢) أحمد نجيب الهلالى (٣) جعفر ولى
(٤) على ماهر (٥) محمد العشماوى (٦) محمد بهى الدين بركات
(٧) محمد توفيق رفعت (٨) محمد حلمى عيسى (٩) محمد على علوبة

رقم الإيداع	٤٤٤٣ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3328 - 8 ISBN

١ / ٩١ / ١١٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

مكتبة الأطفال بقلم كامل كيلانى

قصص فكاهية

١ عمارة . ٢ الأرنب الذكى .
٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قصص من ألف ليلة

١ بابا عبد الله والدرويش .
٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
٥ الملك عجيب . ٦ خسروشاه .
٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قصص هندية

١ الشيخ الهندى . ٢ الوزير السجين .
٣ الأميرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
٥ شبكة الموت . ٦ فى غابة الشياطين .
٧ صراع الأخوين .

قصص شكسبير

١ العاصفة . ٢ تاجر البندقية .
٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

أساطير العالم

١ الملك ميداس . ٢ فى بلاد العجائب .
٣ القصر الهندى . ٤ قصاص الأثر .
٥ بطل أثينا . ٦ الفيل الأبيض .

قصص علمية

١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
٣ فى الاصطبل . ٤ جبارة الغابة .
٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أشهر القصص

١ جلفر فى بلاد الأقزام .
٢ « فى بلاد العمالقة .
٣ « فى الجزيرة الطيارة .
٤ « فى جزيرة الجياد الناطقة .
٥ روبنسن كروزو .

قصص عربية

١ حى بن يقظان . ٢ ابن جبير فى مصر والحجاز .

قصص تمثيلية

١ الملك النجار .